جامعة أم القرى

هدايات الأمثال القرآنية

تأليف

أ.د. فخرالدين بن الزبير المحسي

كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

كرسي الهدايات القرآنية

هدايات الأمثال القرآنية

حقوق الطبع محفوظة

ⓒ دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المحسي ، فخر الدين بن الزبير

هدايات الأمثال القرآنية. / فخر الدين بن الزبير المحسي - المدينة المنورة ١٤٤٠ هـ

ردمك: ٨-٠-٩١٢٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - أمثال	أ. العنوان
ديوي ٢٢٩,٦	١٤٤٠/٤٢٩٩

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٤٢٩٩

ردمك: ٨-٠-٩١٢٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة

شارع الفيصلية - خلف الجامعة الإسلامية

مركز سطور للبحث العلمي

Sutor.center@gmail.com

الصف والإخراج

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

daremslm@gmail.com

daremslm

00966532627111 - 00966590960002

هدايات الأمثال القرآنية

إعداد

د. فخر الدين بن الزُبَيِّر المحسي

كلية الدراسات القضائية والأنظمة

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

مركز سطور للبحث العلمي

دار الإمام مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الرحيم الرحمن، ذي الفضل والجلال والإحسان، أكرم بني الإنسان، ورفع صفوة عباده بالقرآن، وهداهم به للإيمان.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]: وعد وأمان، عهد وضمان، متحقق بنور القرآن.

وصلى الله وسلم على رسوله الأمين، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

وبعد:

فحيث تخصص كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى في مجال الهدايات القرآنية؛ خدمةً للغاية التي من أجلها تنزلت الآيات: تركزت المشاريع والإصدارات، والأبحاث والمقالات، في التأصيل لهذا العلم الشريف.

وكان من أروع التآليف، هذا السِّفْر اللطيف: «هدايات الأمثال القرآنية»، الذي حظي برعاية الكرسي، وتحكيمه العلمي.

أما المصنف فضيلة الشيخ الدكتور/ فخر الدين الزبير علي الزبير، فهو علَم في الهدايات، وأستاذ في المؤلفات، جمع التأصيل والأصول، والعلم بالمعقول والمنقول، كتب فأجاد، وصنَّف فأفاد، أسأل الله أن يباركه ويسدده، وينفع به ويوفقه، إنه سميع مجيب.

أستاذ كرسي الملك عبدالله بن عبدالعزيز للقرآن الكريم

أ.د/ يحيى بن محمد زمزمي

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه.

وبعد:

فضرب الأمثال من الأساليب القرآنية البليغة، والوسائل الدعوية والتربوية البديعة؛ لذلك كانت متعددة ومتنوعة في القرآن الكريم، أمر الله تعالى بالتفكر فيها، والتعقل في خوافيها، فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، و«المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه؛ وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجردا، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله»[(١)].

فآيات الأمثال ينبغي أن تكون بابًا قائمًا بذاته، كآيات الأحكام، وآيات القصص، ونحوها.

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي: (٢/ ٣١٢)، وقال نحوه الزركشي في البرهان في علوم القرآن: (١/ ٤٨٨).

ولذلك كانت هذه الدراسة التي تتضمن إضاءات وتأملات في آيات الأمثال، وبيان الأسرار في أوجه التشبيه، والهدايات.

والكلام في هذا الأسلوب القرآني متسع مشعب، ولكننا سنتحدث عن الجانب الذي نحن بصدده، وهو التفكر في هذه الأمثال، واستخراج فوائدها وهداياتها.

ومنهج الكتاب سيكون بالبدء بالتفسير الإجمالي للمثل، ثم ببيان مناسبته لما قبله وما بعده، ثم إيراد الهدايات المتعلقة به، وذلك إما بنقل ما ذكره أئمتنا الكرام، أو التدبر في دلالات المثل، **واستنباط هداياته من خلال ما يلي**:

١- الاعتماد على دلالات الألفاظ وتنوع الأساليب.

٢- الاهتداء بآثار الصحابة والتابعين.

٣- فهم المثل من خلال أحوال النزول.

٤- الاستفادة من أوجه الإعراب.

٥- التأمل في المقاصد والسياق والمناسبات.

وسيكون السير فيها على ترتيب ورودها في سور القرآن الكريم.

هذا وقد أُلفت كثيرٌ من الكتب حول أمثال القرآن، ولا يعد تعددها تكرارًا؛ فلكل سبيله ووجهته، ومنهجه وطريقته، إلا أن هذا الكتاب هو الأول حول استنباط هدايات الأمثال، وما فيها من وجوه الشبه والدلالات، ولم أقصد به الاستقصاء، وإنما المقصود الانتقاء؛ وفتح هذا الباب لمن أراد التدبر والارتقاء.

ومما كتب في الأمثال عمومًا:

- أمثال القرآن للجنيد القواريري (المتوفّى سنة ٢٩٨هـ).

- أمثال القرآن لإبراهيم بن محمد «نفطويه» (المتوفّى سنة ٣٢٣هـ).

- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة/ حمزة بن الحسن الأصبهاني (المتوفّى ٣٥١ هـ).
- أمثال القرآن/ محمد بن أحمد الإسكافي (المتوفّى عام ٣٨١هـ).
- أمثال القرآن/ محمد بن حسين السلمي النيسابوري (المتوفّى عام ٤١٢هـ).
- الأمثال القرآنية/ لأبي الحسن الماوردي (المتوفّى سنة ٤٥٠هـ).
- أمثال القرآن/ لابن قيم الجوزية (المتوفّى سنة ٧٥٤هـ).
- أمثال القرآن/ أحمد بن عبدالله التبريزي (المتوفّى عام ١٣٢٧ هـ).
- الأمثال القرآنية لعبدالرحمن حسن حبنكه.
- أمثال القرآن / د.محمود بن الشريف.
- الصورة الفنية في المثل القرآني لمحمد حسين علي الصغير.
- الأمثال في القرآن الكريم/ د.محمد جابر الفياض.
- الأمثال القرآنية.. دراسة تحليلية/ د.محمد بكر إسماعيل.

وغيرها.

وأما الأمثال في هذا الكتاب فعددها:

(ستة وستون) مثلًا، وهو من أكثر الأعداد المتناولة، في الكتب المتداولة، مع الإيجاز في العبارة، والتركيز على معالم الهداية، والعناية بأوضح وسائل الدلالة؛ كيلا يكون العلم دُولةً بين المختصين، بلغة قد تستعجم على ثلة من المسلمين.

والله أعلم، والصلاة والسلام على رسوله الأكرم.

تمهيد
في معنى المثل وأنواعه وفوائده ومقاصده

أولاً: معنى المثل

المثل في اللغة: مأخوذ من النظير والمساوي، والصفة، والعبرة، وما يجعل مثالًا لغيره(١).

قال الفيروز آبادي: المثل بالكسر والتحريك الشبه، والجمع أمثال؛ والمثل محرّكة الحجة، والصفة؛ والمثال: المقدار والقصاص، إلى غير ذلك من المعانى(٢).

فالنظير والمساوي وما يجعل مثلا لغيره كلها معان واضحة للمثل، وأما الصفة فكما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد:٣٥] وكذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ...﴾ [محمد:١٥]، وقيل مثل ذلك في قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾

(١) لسان العرب: (١٣٢٢)، مادة مثل.
(٢) القاموس المحيط: (٤٤٩)، مادة مثل.

[الفتح: ٢٩]، قال الراغب: «**والمثل يقال على وجهين:**

أحدهما: بمعنى المثل، نحو: شبه وشبه، ونقض ونقض، قال بعضهم: وقد يعبّر بهما عن وصف الشيء، نحو قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

والثاني: عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني أيّ معنى كان»[(١)].

والمثل في معناه العام قول سائر تشبه به حالة الثاني بحالة الأول، وهو المراد في الأشهر عند الإطلاق[(٢)].

(١) مفردات القرآن (٧٥٩).

(٢) ينظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، تأملات وتدبر، د.عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ص (٣٩-٤٠).

ثانياً: أنواع الأمثال

الأمثال في جملتها على ثلاثة أنواع:

الأول: المثل السائر الموجز:

والمراد به عبارات موجزة تشيع وتنتشر ويكثر دورانها على الألسنة، في مواطن متعددة، وهو كثير في كلام العرب كقولهم: (لكل مقام مقال ولكل دهر رجال) (رجع بخفي حنين) (كالمستجير من الرمضاء بالنار)، وهو مذكور أيضًا في أحاديث النبي ﷺ كما في قوله ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»(١)، «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢)، «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»(٣)، وغيرها كثير.

ومن هذه الأنواع في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وغيرها.

فهي آيات ذات معنى معين، ولكنها تستخدم في مواطن متعددة، فالآية الأولى: تستخدم في كل من لم يأت الأمور على وجهها، والثانية: وإن كانت

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أَحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٨٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، رقم (٩٢٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٠٣٤).

لتشبيه حال أعمال الكفار إلا أنها أصبحت مثلا سائرا في كل ما لا يرجى تحصيله، والثالثة: في كل ما كفي الإنسان مؤنته وتخلص من تبعته.

وهذه الأمثال السائرة هي عبارة عن عمومات تنزل على بعض المفردات، وقد استطاع بعض الدارسين المعاصرين أن يجمع منها نحو سبعمائة مثل، والله أعلم(١).

الثاني: المثل الخرافي:

وهو عبارة عن حكايات خيالية على ألسنة الحيوانات أو الأشجار أو الجمادات يراد بها التعليم أو العبرة أو الفكاهة، كقولهم: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) وهو أسلوب أدبي قصصي عند العرب كما في كليلة ودمنة لابن المقفع، وهذا النوع لا محل له في القرآن الكريم.

الثالث: المثل القياسي:

وهو المثل القصصي الذي فيه تشبيه صورة بصورة، وهذا النوع يدخل في القياس من جهة أن فيه تعدية وتشبيها، كما أنه يدخل في الأساليب البلاغية ضمن التشبيهات والاستعارات، قال ابن القيم: (وضرب الأمثال، وصرفها في الأنواع المختلفة، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله، فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم)(٢).

---

(١) الأمثال العربية، دراسة تاريخية تحليلية، د. عبد المجيد قطامش ص (١٣٠)، عن الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله للجربوع (١/ ٤٧).

(٢) إعلام الموقعين: (١/ ١٠١).

والأمثال القياسية على أنواع:

منها: التمثيل القصصي:

وهو بيان أحوال الأمم الماضية للعظة والاعتبار من خلال التشابه الموجود بينها وبين غيرها، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠][(١)].

ومنها: التمثيل الطبيعي:

وهو عبارة عن تشبيه غير المحسوس بالمحسوس، والغائب بالمشاهد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: (٢/ ١٠٤١).

ثالثاً: فوائد ضرب الأمثال وأهميتها

بين الله تعالى أهمية ضرب الأمثال، وأن فهم حقيقة مراميها، وتدبر دقائق معانيها، واستخراج أعماق خوافيها، إنما هو من خصائص أولي الألباب والتفكر، والعلم والتدبر، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فأمثال القرآن تنتظم مميزات عظيمة، وفوائد جليلة تصب في معين الهداية، وتحلق بالمؤمنين في معارج الولاية، **ومن فوائد هذا الأسلوب ما يلي:**

١- ما فيها من إيجاز الألفاظ، واختصار العبارات يدفع شرود الذهن والسآمة، فتتغلغل في دواخل العقل، وتؤتي أكلها في سويداء القلب.

٢- أن فيها بيانا للمعنى المراد، وإصابته بأوضح دلالة، فبتدبر يسير يفهم المثل، ووجهه، والغاية منه، والاعتبار به؛ فتحقق الهداية بأيسر السبل.

٣- فيها حسن التشبيه وقوة الصور البلاغية، فيكون أسلوبًا آخر للحوار، ونمطًا متجددًا للحجة، وطريقًا للهداية.

٤- وفيها إيناس النفس، وسرعة قبولها وانقيادها، فالأمثال تروق لها الأسماع، وتنجذب لها الأفئدة.

٥- «والتمثيل: أمثل أساليب البلاغة، وأشدها تأثيرًا في النفس، وإقناعًا للعقل»[(١)].

قال عبد القاهر الجرجاني: (اعلم أنّ مما اتّفق العقلاء عليه أنّ التمثيل إذا

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا: (١/ ١٤١).

جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطّباع على أن تعطيها محبة وشغفا.

فإن كان ذمًّا: كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشدّ، وحدّه أحد.

وإن كان حجاجا: كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

وإن كان افتخارا: كان شأوه أمدّ، وشرفه أجد، ولسانه ألد.

وإن كان اعتذارا: كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسلّ، ولغرب الغضب أفلّ، وفي عقد العقود أنفث، وحسن الرجوع أبعث.

وإن كان وعظا: كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر أن يجلى الغباية، ويبصّر الغاية، ويبري العليل، ويشفي الغليل)[1].

والأمثال القصصية لها فوائد تزيد عما سبق، منها:

- الاقتداء بأهل الهداية المضروب بهم المثل الحسن، والانتهاء عن سبل الغواية التي ضرب بها مثل السوء، كما قال الله تعالى عن شعيب في إنذار قومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩].

- ومنها: أن عاقبة من ضرب بهم المثل متعدية إلى غيرهم ممن هم على سننهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

---

(١) أسرار البلاغة: (١٠١ - ١٠٢).

فهكذا هي الأمثال واسعة الشعب، متعددة المقاصد، كالبستان الذي يستفاد منه فوائد متنوعة؛ بظلاله وعيونه، وأخشاب أشجاره، وروائح أزهاره، ومذاق ثماره.

وقد نزلت الأمثال لهداية الناس؛ فلذلك كانت تتميز بما تتميز به مراحل الهداية:

- فالأمثال في المرحلة المكية كانت تتميز بما تتميز به الآيات المكية، من مجادلة المشركين، وإبطال آلهتهم، وتقرير التوحيد، وإثبات البعث، كما في سورة العنكبوت.

وفي بيان فضائل التوحيد وقبائح الشرك يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

- وأمّا الأمثال المدنية: فتأخذ الطابع المدني في علاج الأدواء التي ابتلي بها المجتمع المدني كالنفاق كما في أول الأمثال في سورة البقرة وهو المثل المائي والناري، وكانحرافات أهل الكتاب حيث ضرب الله تعالى بهم مثلا بالحمار يحمل أسفارا كما في سورة الجمعة، وكذلك التركيز على الجوانب السلوكية كما في مثل الغيبة الوارد في سورة الحجرات.

وكذلك تميزت الأمثال المدنية بالصور المرغبة في الفضائل كما في مثل مضاعفة النفقة في سورة البقرة.

فالأمثال القرآنية تتنوع بحسب التقسيمات السابقة؛ لتتعانق في تحقيق الهداية لكل من عقلها وتأملها[1].

---

(١) ينظر: الهدايات القرآنية -دراسة تأصيلية-، الفريق العلمي بكرسي الملك عبدالله للقرآن الكريم: (١/ ٣٣٠-٣٤٣).

رابعاً: مقاصد الأمثال القرآنية

للأمثال في القرآن الكريم، فوائد جليلة، ودلالات عديدة، وموضوعات متنوعة، كما سبق، وكلها تدور حول مقاصد عظيمة، وغايات كريمة، تجلت من خلال تأمل أصولها وفصولها، ويمكن جمع معالمها فيما يلي:

١- تقرير التوحيد، وبيان فضله، وعبادة الله تعالى وحده، وشناعة الشرك: كما في مثلي الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة، ومثل المشرك الذي يخرّ من السماء، ومثل الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون، ومثل العنكبوت، ونحوها.

٢- تعظيم ربوبية الله تعالى، وإثبات صفاته سبحانه، وتحقيق تفرده بالكمال والجلال: كما في مثل النور، وكذلك مثل المملوك والسيد، والعدل والكَلّ، ومثل سعة كلماته، ومثل التحدي بخلق ذبابة، ونحوها.

٣- إثبات البعث: كما في أمثال تقلب الدنيا، وأمثال مجادلة المشركين في إنكارهم، كما في مثل خواتيم سورة يس.

٤-بيان حال المهتدين، والترغيب فيه: كما في مثل الصحابة، وأمثال ثواب المخلصين، وأمثال مضاعفة أعمالهم، والأمثال في وصفهم بالحياة والنور، وبيان مالهم في الآخرة، ونحوها.

٥-بيان ضلال المنحرفين، والترهيب عنه: كما في المثلين: الناري، والمائي للمنافقين، ومثل المرائين بالصدقة، ومثل المرابي والمغتابين، وأمثال ضياع الأعمال الخاسرة، وتشبيه الذي انسلخ عن الآيات بالكلب، وتشبيه الذين لم يحملوا الهدى بالحمار يحمل أسفارًا، وكذلك مثل صاحب الجنتين،

وأمثال تشبيه الكفار بالأنعام، وبالأموات، ونحوها.

٦- بيان أحوال الدنيا، وشهواتها العارضة، وزخارفها الزائلة، وأنها لا شيء أمام الآخرة، كما في أمثال كثيرة.

وفيما يأتي إن شاء الله تعالى تفصيلها، وعلى الله تعالى التوكل وبه الاستعانة، ومنه التوفيق إلى الإبانة.

المثل الأول : المثل الناري

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧-١٨].

المعنى الإجمالي:

المقصود بالمثل: المنافقون؛ حيث ضرب الله تعالى لهم مثلين بحسب أحوالهم:

المثل الأول: الناري.

والمثل الثاني: المائي، وسيأتي بعده.

- **أما هذا المثل**: فحاصله أن الله تعالى يشبه المنافقين بالذي يستوقد النار؛ لتضيء له، وينتفع بها، لكنه سرعان ما يذهب نورها، ولا يبقى له إلا مادة إحراقها، فهنا يستوقد النار فيذهب الله بما فيها من الإضاءة، ويبقى لهم ما فيها من الإحراق؛ لذلك قال:﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل بنارهم؛ لأنه بقيت في قلوبهم حرارة الكفر والشك في الدنيا، ثم تصلى في الآخرة نارًا موقدة، تتطلع على الأفئدة المظلمة.

المناسبات:

ذكر الله تعالى قبل هذا المثل أحوال المنافقين بعد ذكر المؤمنين والكافرين، وبين ما هم عليه من الفساد والسفه والمخادعة، واستبدال الضلال بالهدى،

فلما أظهر «ذلك كله، وكانت الأمثال ألصق بالبال، وأكشف للأحوال، مثّل حالهم في هداهم الذي باعوه بالضلالة بالأمور المحسوسة؛ لأن للتمثيل بها شأنًا عظيمًا في إيصال المعاني حتى إلى الأذهان الجامدة وتقريرها»[١]، فضرب هذا المثل الناري، ثم سيعقبه بالمثل المائي.

الهدايات:

وفي هذا المثل جملة من الهدايات، ومنها:

- أنه ذكر المشبه به بلفظ المفرد: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لكون المنافقين جميعا على قلب واحد «بما أظهروا بألسنتهم من الإقرار، وهم لغيره مستبطنون - من اعتقاداتهم الرَّديئة، وخلطهم نفاقَهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر.

والاستضاءَةُ -وإن اختلفت أشخاص أهلها- معنًى واحد، لا معانٍ مختلفة»[٢].

- فيه: أنهم عرفوا الإسلام واستضاؤوا به، وانتفعوا بصحبتهم للمؤمنين، لكن لم تنور قلوبهم بنور الوحي، فبقوا في ظلمات لا يبصرون، وهذا حال المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل ثم خرج، فهم لا يرجعون.

- فيه: إشارة إلى أنه تعالى كما أذهب نورهم في الدنيا فإنه سيذهب نورهم يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: (١/ ١١٨).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ٣١٩).

قال ابن القيم: (لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذانًا واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوبًا خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات، فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة، فأغلقت أبواب رشدها، وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشهادة الباطل فلم تصغ بعده إلى الملام، ووعظت بمواعظ أنكى فيها الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة وأسر الهوى والشهوة، وما لجرح بميت إيلام)[1].

- في اختيار صورة الذي يستوقد النار حكم بليغة، ومنها:

كثرة الفوائد في النار، ففيها: الاستضاءة، والتدفئة، والاهتداء في الظلمات، والطعام، والعلاج، وإصلاح الأشياء، وتنقية شوائب المعدن وتصفيته، وكلها منافع، كما أن الوحي كله منافع، بل لا شك هو أعظم منها، ولا مقارنة بينهما:

١- ففيه الضياء والنور، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشوري:٥٢].

٢- وفيه الطمأنينة والسكينة والتي هي من جنس التدفئة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، والقرآن أعظم الذكر.

٣- وفيه الاهتداء في الظلمات، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

---

(١) الوابل الصيب ص (٥٥).

٤- وفيه غذاء الأرواح وحياتها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢].

٥- وفيه الشفاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾، وقال سبحانه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧].

٦- وفيه: صلاح الكون وبقدر مخالفته يفسد نظامه، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

٧- وفيه: التخليص والتصفية، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

- مع هذه المنافع في النار إلا أن فيها العذاب أيضًا، وكذلك الوحي فيه الوعيد والعذاب والترهيب للمكذبين، فهؤلاء المنافقون أعرضوا عن كل تلك المنافع، واختاروا ما فيه من العذاب بمخالفتهم له، كالذي يختار من النار ما فيها من العذاب، ويتنكر جميع منافعها.

- أن تعذيبهم بالنار مؤجل في الآخرة، كما أنه لا يصح أن يعذب أحد بالنار في الدنيا؛ فقد قال ﷺ: «**لا يعذب بالنار إلا رب النار**»(١)، وكذلك التعذيب بالنار لمن خالف الوحي يكون في الآخرة، مع ما قد يصيبهم من عقوبات عاجلة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٦) -بلفظ آخر- وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٤) والترمذي، كتاب السير، باب رقم (٢٠)، حديث (١٥٧١).

- أن هذا المثل جاء بعد سياق صفات المنافقين، ومكرهم بالمؤمنين واستهزائهم بهم، ففيه إشارة إلى أنهم قد ينتفعون عاجلًا ببعض نفاقهم، لكن سرعان ما ينقلب عليهم مكرهم، وتستوفى لهم عقوبتهم.

- وفيه: أن من اقترب من الوحي لا بد أن ينتفع به ولو إلى حين، والشقي من استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولم يقبل الهدى الذي جاء به.

-في قوله: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]: «لما كان المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة، فلم يبق إلا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن، وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات، بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب، فلذلك جعله بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة، ولم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى»[1].

(١) تفسير الرازي: (٢/ ٣١٥).

المثل الثاني: المثل المائي

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة ١٧-٢٠].

المعنى الإجمالي:

- **وهنا المثل الثاني للمنافقين، وهو المثل المائي**: حيث شبه الله تعالى القرآن بالمطر المصبوب من السماء، والذي فيه حياة الأرض والنبات والحيوان والإنسان.

ولكن هذا الوحي متضمن للوعيد والتهديد، والعقوبات والمثلات، كما أن المطر يقارنه الغيم والظلمة والرعد والبرق، فحظ المنافق من هذا المطر الفزع من رعده، وشدة الخوف من برقه، فيضع أصابعه في آذانه؛ لقوة صواعقه، والتي تكاد تخطف بلمعانها أبصارهم، فإن أضاء له مشى في ضوئه، وإن فقد الضوء قام متحيرًا.

وهذه حقيقة حالهم مع القرآن والوحي، فقد اشتدت عليهم زواجره ووعيده، ونواهيه وتهديده، فلم ينتفعوا بما فيه من الحياة والنور والهدى، فإذا أضاء لهم ما فيه من الحق عرفوه وتكلموا به، ولكنهم سرعان ما يرتكسون

إلى الكفر، ويتحيرون في ظلمات الضلال.

المناسبات:

بعد أن ذكر الله تعالى مثل النار، وأن حظهم منها -مع ما فيها من منافع- مجرد الإحراق، ذكر هنا مثل المطر والذي لم ينتفعوا به، وإنما كان حظهم منه الفزع والخوف من البرق والرعد، والجامع بينهما أن النار والماء من أكثر ما ينتفع به الناس، ومع ذلك كانت مضرتهما عليهم أعظم من منفعتهما.

ولذلك أمر بعد المثلين بعبادة الله تعالى؛ لأنها غاية ما جاء به الوحي، فمن حققها انتفع بما في الوحي من منافع في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

الهدايات:

ومن هدايات هذا المثل:

- العطف بأو: إما للتنويع في الحجة عليهم، بضرب هذا المثل أو ذاك. وإما لاختلاف أحوالهم؛ فالأولون لم يبصروا مطلقًا، وهؤلاء اضطربوا بين العمى والإبصار، كما في قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة:٢٠].

- وهو مثل عظيم في بيان حال هؤلاء المنافقين الذين لم ينتفعوا من المطر الذي هو مادة للحياة، وإنما تضرروا بما فيه من الصواعق والرعد والبرق، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

- وجه الشبه بين الماء والوحي ظاهر، وهو: أن في الماء حياةً لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٨]، وكذلك القرآن فيه حياة الأرواح، وصلاح الأبدان، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ ولذلك سماه الله تعالى روحا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

- من وجوه الشبه بين الصيب والوحي: أن كلا منهما نازل من السماء، قريب عهد بمولاه؛ لذلك قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، قال: فحسر رسول الله ﷺ ثوبه، حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله لم صنعت هذا؟ قال: «**لأنه حديث عهد بربه تعالى**»(١).

- وكذلك فإن الغيث يحتاجه كل شيء في الأرض من الشجر والدواب، والوحي يحتاجه جميع الخلق لصلاح الدنيا والآخرة.

- أن المطر قد يتضمن عذابا، كما أن الوحي فيه الإنذار للمعرضين، والترهيب من العذاب المهين.

- أن الغيث يستبشر به الناس، كما يستبشر المؤمنون بالوحي، فقد قال تعالى في الغيث: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٨).

يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم:٤٨]، وقال تعالى في الوحي: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

- فيه: أنه استوحش المنافقون بما أنس به المؤمنون، وارتابوا بما اطمأن به المتقون، وشكوا فيما تيقنه الموقنون؛ لأنهم أبطنوا خلاف ما يبطنه المؤمنون.

- وتنكير الصيب للتعظيم؛ فهو مطر شديد هائل، لذلك قيده بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٩]، «فدل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء فكما حصل في لفظ الصيب مبالغات من جهة التركيب والتنكير أيد ذلك بأن جعله مطبقا»(١).

- وقد جمع كلمة ظلمات، ولم يجمع الرعد والبرق؛ وذلك لأن الرعد والبرق نوع واحد، وأما الظلمات فهي متعددة تشمل: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، والظلمة بعد الصواعق، وهذا يناسب أنواع الظلمات التي في قلوبهم.

- والتنكير في جميعها؛ لتعظيمها أيضا كتنكير الصيب.

- وفي التعبير بالأصابع دون الأنامل، -وهي التي توضع في الآذان- بيان لشدة الرعد وشدة خوفهم حتى كادوا إدخال أصابعهم كلها حذرا وهلعا.

- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]: تهديد لهم بأن هذه الأسماع والأبصار إن لم تنتفعوا بالاهتداء بها فإن الله تعالى قادر على سلبها منكم، كما وهبها لكم.

---

(١) تفسير الرازي: (٢/ ٣١٧).

- وفي قوله:﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾: دلالة «على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار؛ ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة، وسدوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم»(١)، فهي عارية عندهم سيذهب بها واهبها لهم.

- في المثل: أن كل من وجد في نفسه نفورا ووحشة من شيء مما جاء به الوحي ففيه شعبة من النفاق، ويخشى عليه الكفر، وحبوط العمل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد٨-٩].

- وفيه: أن الحياة الحقيقية هي التي تكون في ظل القرآن ورحابه، كما أن حياة الأرض تكون بالمطر، فينبت الشجر، ويأكل منه الحيوان، وعليهما يعيش البشر.

(١) الكشاف للزمخشري: (١/ ٥٤).

المثل الثالث: بعوضة فما فوقها

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٧٤].

المعنى الإجمالي:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾ أيّ مثل كان ﴿بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾، قيل: ما هو أعلى منها، وقيل: ما دونها[1]؛ لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله تعالى لا يستحيي من الحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، وكأنّ في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله تعالى في ذلك؛ فعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «لما ذكر الله تبارك وتعالى: العنكبوت، والذباب: قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله الآية»[2].

وليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله تعالى لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(١) تفسير البغوي: (١/ ٧٧).

(٢) تفسير الطبري: (٥٥٨)، وإسناده حسن، كما في التفسير الصحيح: (١/ ١٢٨).

﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فيتفهمونها، ويتفكرون فيها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحيرون، فيزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ فهذه أصناف الناس مع القرآن الكريم.

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم، وأن ذلك عدل منه تعالى، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم؛ فلا يبغون به بدلا[1].

المناسبات:

قال البيضاوي: « لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل: عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له، والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له، من الجهة التي تعلق بها التمثيل، في العظم والصغر، والخسة والشرف، دون الممثل؛ فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس؛ ليساعد فيه الوهم العقل، ويصالحه عليه»[2].

ثم بين في الآيات بعدها حال الفاسقين المعرضين عن تأمل هذه العظات، وتدبر الأمثال والآيات.

---

(١) ما سبق من تفسير السعدي: (٤٧)، بتصرف.

(٢) أنوار التنزيل: (١/ ٦٢).

الهدايات:

- قال أبو العالية: «فإذا جاءت آجالهم، وانقطعت مدتهم صاروا كالبعوضة، تحيا ما جاعت، وتموت إذا رويت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب لهم هذا المثل: إذا امتلئوا من الدنيا ريًا: أخذهم الله فأهلكهم»(١)، وهي من الدلالات الخفية؛ بناء على أن مثل البعوضة ضرب حقيقة، وليس تقديرًا.

- فيها: أن الله تعالى «يضرب في الحقّ من الأمثال صغيرِها وكبيرِها؛ ابتلاءً بذلك عبادَه، واختبارًا منه لهم؛ ليميز به أهل الإيمان والتصديق به من أهل الضلال والكفر به؛ إضلالا منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين»(٢).

- فيها: أنه تعالى « لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا -ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة- كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها»(٣)، فكما هي معجزة في خلقها، فكذلك معجزة في ضرب المثل بها لمن تدبرها.

- فيها: أنه «إذا كان الغرض التأثير: فالبلاغة تقضي بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه، بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها، واعتادت النفوس النفور منها، ومثل هذا لا يخفى على بليغ، ولا على عاقل»(٤)، ولكنها محض المكابرة منهم.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٦٨)، بإسناد حسن، كما في التفسير الصحيح: (١/ ١٢٨)، ورُوى عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه، كما عند الطبري، رقم (٥٥٥).

(٢) تفسير الطبري: (١/ ٤٠١).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي: (١/ ٢٨٧).

(٤) تفسير المنار: (١/ ١٩٨).

- فيها: إثبات صفة الحياء لله تعالى، كما تليق به سبحانه؛ بمفهوم الآية، وبمنطوق الأحاديث: كقوله ﷺ: «وأما الآخر؛ فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر؛ فأعرض، فأعرض الله عنه»(١).

وقوله ﷺ: « إن ربكم حيّي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين»(٢)، وهي صفة تتضمن ترك ما لا يتناسب مع سعة رحمته، وكمال جوده وكرمه، وعظيم عفوه وحلمه(٣).

فيها: بيان «حال المؤمنين والكافرين عند نزول القرآن: قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة وضلالة، وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة، وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال»(٤).

- في قوله: (فَمَا فَوْقَهَا): قال الرازي: « وجهان: أحدهما: أن يكون المراد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، رقم (٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها، رقم (٢١٧٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٧١٤)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب (١٠٥)، رقم (٣٥٥٦) واللفظ له، وأبو داود، كتاب تفريع أبواب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والحاكم (١/ ٤٩٧)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: (١٧٥٧) .

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ١٨١)، شرح نونية ابن القيم: (٢/ ٨٠).

(٤) تفسير السعدي: (٤٧).

فما هو أعظم منها في الجثة، كالذباب، والعنكبوت، والحمار، والكلب، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء.

والثاني: أراد بما فوقها في الصغر، أي بما هو أصغر منها، والمحققون مالوا إلى هذا القول؛ لوجوه:

أحدها: أن المقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود في هذا الباب أكمل حصولًا.

وثانيها: أن الغرض هاهنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير...

وثالثها: أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب، فإذا كان في نهاية الصغر: لم يحط به إلا علم الله تعالى، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة، من التمثيل بالشيء الكبير»[(١)]، ومع ذلك فالوجهان محتملان.

- فيها: ضرورة التسليم لكلام الله تعالى، وعدم معارضته بضعيف الأفهام، وسقيم الأوهام، وإن لم يتبين للسامع مراده.

- فيها: اقتضاء «حكمته تعالى إضلالهم؛ لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان، وتحلى بالأعمال الصالحة»[(٢)].

- فيها: أن التردد في قبول الحق سبب للزيغ، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

---

(١) تفسير الرازي: (٢/ ٣٦٤).
(٢) تفسير السعدي: (٤٧).

المثل الرابع: قسوة القلوب

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤].

المعنى الإجمالي:

أي غلظت قلوبكم بعد كل تلك النعم العظيمة، وظهور الآيات البليغة، مع أن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، فقست حتى غدت كالحجارة في قسوتها، بل أشد؛ فهي لا ترق ولا تلين ولا تخشع؛ وبعض الحجارة قد يتفجر منها الأنهار والعيون، وبعضها يخرج منها الماء، وبعضها يسقط ويخشع من خشية الله تعالى كما حصل لجبل الطور، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقد جاءت بعض هذه الأوصاف للحجارة فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»(١).

وقال ﷺ: «**إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني أعرفه الآن**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٦٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢٢٧٧).

المناسبات:

ذكر الله تعالى قبل هذا المثل آية عيانية عظيمة، وهي إحياء الموتى لهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٢،٧٣]، وكان مقتضى هذه الآية إذعانهم وطاعتهم وانقيادهم، لكنهم قابلوها بالمعصية، فلذلك شبه قلوبهم بالحجارة التي لا يمكن تطويعها، ثم أعقب هذه الآية بتسلية المؤمنين ونفي الطمع في إيمانهم؛ لقسوة قلوبهم بقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

الهدايات:

- **فيها**: ذم تنكر النعم وكفرانها، وإنكار البراهين وجحودها؛ فإن بني إسرائيل من أكثر الأمم التي تنوعت عندهم النعم، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧].

كما أنهم من أكثر الأمم التي ظهرت لهم الآيات والبراهين، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣]، ومع ذلك تنكروا فاستحقوا غضب الله تعالى عليهم.

- **فيها**: أن اليهود هم من أشد الناس قسوة، وهو ما يصدقه تاريخهم وواقعهم، وهذا شاهد على صدق هذه الآيات، وصدق رسالة النبي ﷺ.

- في تشبيه قسوة قلوبهم بالحجارة -دون الحديد وغيره مما هو أكثر صلابة-: دلالة بليغة، وهي أن الحديد وغيره من المعادن تصهره النار وتطوعه بخلاف الحجارة، لا يطوعها شيء إلا بكسرها وتهشيمها.

- في قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤]: «المقصود من التخيير أن المتكلم يشير إلى أنه لا يرمي بكلامه جزافا ولا يذمهم تحاملا، بل هو متثبت متحر في

شأنهم فلا يثبت لهم إلا ما تبين له بالاستقراء والتقصي فإنه ساواهم بالحجارة في وصف، ثم تقصى فرأى أنهم فيه أقوى فكأنه يقول للمخاطب: إن شئت فسوهم بالحجارة في القسوة، ولك أن تقول: هم أشد منها»[(١)].

- **وفيها**: أن قلوبهم هذه أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد تجمع خصالا مفيدة دينية كالخشية والسلام والمحبة كما سبق، أو دنيوية كخروج الماء منها، بينما هؤلاء لا خير في قلوبهم فهي قاسية عن ذكر الله، وقاسية عن رحمة عباد الله.

- **فيها**: أن الجمادات مقرة بربوبية الله تعالى متعبدة له، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤].

- **فيها**: أن من علامات الشقاء في الدنيا والآخرة قسوة القلوب، كما قال ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»[(٢)]، وكما في الحديث: «**وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[(٣)].

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٥٦٤).

(٢) رواه أحمد في المسند: (٢/ ٣٠١) (٧٩٨٨)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤٢)، والترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرحمة بين المسلمين، رقم (١٩٢٤)، وحسنه، وابن حبان: (٢/ ٢١٣) (٤٦٦)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٢٧٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، وصححه الألباني في السنن، وصحيح الأدب المفرد (٢٨٨).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب منه، رقم (٢٤١١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب)، وفي إسناده ضعف، كما في السلسلة الضعيفة (٩٢٠).

المثل الخامس : ينعق بما لا يسمع

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

المعنى الإجمالي:

هنا يضرب الله تعالى مثلا بالكافر، وهو على تشبيهات بحسب توجيه دلالة الآية:

الأول: أن هذا الكافر: هو الناعق، أي المصوت بالغنم.

وما يدعوه من الآلهة الباطلة والأوثان العاطلة: هي الدواب التي لا تسمع إلا مجرد النداء، ولا تفقه ما يقال لها، ولا تعي الكلام الموجه إليها، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

الثاني: أن الكافر: مثل تلك الأنعام التي لا تفقه ما يقال لها.

ومن يدعوهم إلى الإيمان من أنبيائهم: هو الناعق المصوت لتلك الأنعام، وهي في غفلة عنه، وهو ما رجحه الطبري[1].

الثالث: «وقيل معناه: ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم، كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت، ولا تفهم ما تحته، فكذلك هؤلاء

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٣/ ٣٠٨)، وقد أوصل أبو حيان الأقوال فيها إلى تسعة، كما في البحر المحيط: (٢/ ١٠٧).

يتبعونهم على ظاهر حالهم، ولا يفقهون أهم على حق أم باطل؟»[(١)].

ولا مانع من حملها على هذه المعاني؛ لاحتمال الألفاظ لها؛ فالقاعدة: أنه متى احتمل اللفظ عدة معاني غير متعارضة فالأصل حملها عليها؛ تكثيرا لمعاني الآيات وهداياتها.

المناسبات:

سُبق هذا المثل ببيان أن هؤلاء الكفار لا يتبعون حجة معتبرة، وإنما يقلدون آباءهم، دون هداية وتعقّل، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

فناسب بعد ذلك أن يبين مثلهم مع من يدعوهم إلى الهدى، وعدم اتباعهم له، ثم انتقل في الآية بعدها إلى مخاطبة المؤمنين الذين حققوا التعبد، وبين لهم أن ذلك لا ينافي الاستمتاع بالطيبات مادام يؤدى شكرها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

الهدايات:

من هدايات هذا المثل على المعاني السابقة، ما يلي:

- **المعنى الأول للآية:** يفيد ذم الكفار في ندائهم ما لا يسمع ولا ينفع، وهذا من قلة عقولهم، واستحواذ الشيطان عليهم.

- كما تفيد ذم آلهتهم بأنها لا تنفعهم، ولا تضرهم، ولا تغني عنهم شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٢١٤).

لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان:٣].

- **المعنى الثاني**: يفيد ذم الكفار بأنهم في غفلة عن أنبيائهم، وفي ضلال عن دعوتهم، وإعراض عن ندائهم، ويدخل في ذلك كل من يعرض عن الحق على تفاوت بينهم.

- **المعنى الثالث**: يفيد ذمهم على تقليدهم بلا تعقل وتفكر، كما يفيد ذم آبائهم؛ حيث دعوهم إلى ما ليس فيه حجة ولا برهان.

لذلك قال في آخرها: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] فهم لا يعقلون حين دعوا ما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا، وهم لا يعقلون لما يقوله لهم رسلهم، وما يدعوهم إليه ربهم، ولا يعقلون في تقليدهم آباءهم بلا بصيرة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

فتدبر هاتين الآيتين مع تلك الآية: يتعانق المعنى، ويتجلى المراد: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

- «وإنما عطفه بالواو هنا، ولم يفصله كما فصل قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]؛ لأنه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقي دعوة الإسلام، ولو لم يعطفه لما صح ذلك»[1].

- **وفي المثل**: تنبيه إلى أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام.

- «ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرا لقلبه، وتضييقا لصدره، حيث صيره كالبهيمة،

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ١١١).

فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»[١].

- قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٧١]: إنما وصفهم بذلك؛ لأنهم جمعوا هذه الخصال:

فهم بمنزلة الصم: في أن الذي سمعوه كأنهم لم يسمعوه.

وبمنزلة البكم: في أن لا يستجيبوا لما دعوا إليه.

وبمنزلة العمي: من حيث إنهم أعرضوا عن الدلائل، فصاروا كأنهم لم يشاهدوها.

- قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]: لما كان طريق اكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاثة -السمع والكلام والبصر- فلما أعرضوا عنها فقدوا العقل المكتسب، ولهذا قيل: من فقد حسا فقد علما[٢].

- **وفي المثل**: «تسلية الدعاة إلى الله تعالى عندما يواجهون المقلدة من أهل الشرك والضلال.

- حرمة التقليد لأهل الأهواء والبدع.

- وجوب طلب العلم والمعرفة حتى لا يفعل المؤمن ولا يترك إلا على علم بما فعل وبما ترك.

- لا يتابع إلا أهل العلم والبصيرة في الدين؛ لأن اتباع الجهال يعتبر تقليدًا»[٣].

---

(١) تفسير الرازي: (٥/ ١٨٩).

(٢) ينظر ما سبق في تفسير الرازي: (٥/ ١٩٠).

(٣) أيسر التفاسير للجزائري: (١:١٤٧).

المثل السادس : سنابل الصدقة

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

المعنى الإجمالي:

يشبه الله تعالى المنفق في سبيله؛ ابتغاء مرضاته بالذي يبذر الحب، فتنبت كل حبة سبع سنابل، وفي كل سنبلة مائة حبة، فكانت كل حبة مشتملة على سبعمائة حبة.

وهكذا الصدقة ينميها الله تعالى ويضاعفها لعبده بحسب ما يقوم في قلبه من الإيمان والإخلاص والإحسان، وبحسب انشراح صدره بها، وثبات قلبه عند إخراجها، وبقدر نفعها.

وهكذا تلك الحبة بمقدار الأرض التي بذرت فيها، ومعاهدة صاحبها لها يكون نماؤها؛ لذلك يقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليصدق بالتمر من طيب، ولا يقبل الله إلاّ طيبًا، فيجعلها الله في يده اليمنى، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير مثل أُحُد**»(١).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول، رقم (١٤١٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١١٤).

المناسبات:

كانت الآيات السابقة حول الإيمان بالله تعالى، ودلائل قدرته على الخلق والبعث، وأن المؤمنين مطمئنون لذلك كما في قصة إبراهيم، فناسب هنا الكلام عن براهين الإيمان في القلب، ومن أظهرها الإنفاق في سبيل الله تعالى، كما قال ﷺ: «**والصدقة برهان**»(١).

كما أنها من أعظم ما يدخر للبعث الذي سبق تقريره، فقد قال ﷺ: «كل امرئ في ظل صدقته، حتى يفصل بين الناس»(٢).

فكان هذا المثل ضمن سلسلة ستأتي من العظات، والأمثال المحققة لشعيرة الإنفاق، الذي هو برهان على صدق الإيمان بالملك الرزاق.

الهدايات:

- **فيها**: بيان فضل الله تعالى على خلقه؛ فإن المال ماله، وهو الخالق له، والرازق لخلقه منه، وما يطلبه من الخلق هو محض حقه، ومع ذلك لم يطلب إلا القليل، ثم اعتبر هذا القليل قرضا يضاعفه لمنفقه، كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥].

- **فيها**: الحث على النفقة؛ «فلو علم إنسان يطلب الزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٢) رواه أحمد: (٤/ ١٤٧ - ١٤٨)، والبيهقي: (٤/ ١٧٧)، والطبراني: (١٧/ ٢٨٠/ ٧٧١)، وصححه ابن خزيمة: (٤/ ٩٤/ ٢٤٣١) وابن حبان: (٨/ ١٠٤/ ٣٣١٠) والحاكم: (١/ ٤١٦) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٤/ ١٧٠).

فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر في الآخرة عند الله أن لا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة عشرة ومائة، وسبعمائة»[١].

- **فيها**: أن كل عمل مرجعه إلى النية؛ لذلك قيد النفقة بسبيل الله؛ إشارة إلى ابتغاء رضاه، بنور منه وهداه.

- **وفي هذا التشبيه معنى دقيق**: وهو أن من يبذر الحبة لا يعلم حالها ولا مآلها، مع فأله بإنباتها، واتخاذه أسباب نموها من سقيها وتعاهدها، والحرص على عدم تعرض الآفة لها، وكذلك من ينفق في سبيل الله لا يعلم حال صدقته عند الله تعالى، مع حسن ظنه به سبحانه، واتخاذه الأسباب من الإخلاص قبلها، وعدم المن والأذى والعُجب بعدها. فتأمل في هذا التشبيه البديع.

- وفي اختيار الحَبِّ في هذا التشبيه دون غيره من الزرع فائدة عجيبة، وهي: أن الحب تمام النبات المنتهي إلى صلاحية كونه طعامًا للآدمي، الذي هو أتم الخلق، فالحب أكمل من الثمرة طعامية، والثمرة إدامية[٢].

- **فيها**: ما ينبغي تأمله من التعبير القرآني البليغ في كلمة (سنابل) بينما عبر في سورة يوسف بقوله: (سنبلات)؛ وذلك لأن سنابل جمع كثرة، فالمقام هنا مقام تضعيف وتكثير من الغني الكبير سبحانه[٣].

- ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]: فناسب بعد ذلك العطاء الواسع، والإحاطة بحال المتصدق أن يختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ

(١) تفسير الرازي: (٧/ ٤٠).
(٢) نظم الدرر للبقاعي: (٤/ ٧٤).
(٣) التفسير القيم لابن القيم (ص١٥٧).

وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فثوابه بمحض فضله الواسع، وعلمه المحيط بحال خلقه.

- **وفي الختم بالعلم**: إشارة إلى أن الله تعالى أعلم بمن ينفق في سبيله، ومن ينفق رياء وسمعة؛ لذلك ناسب ذكره بعد ذلك للمرائين والمنّانين.

- وفي هذا أيضًا: أخذ لتلابيب القلب لمراعاة الصدق، وتعاهد الإخلاص في جميع الأعمال.

المثل السابع: صدقة المرائي

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

المعنى الإجمالي:

يحذر الله سبحانه من إبطال الصدقات، وإحباط أجرها، وإذهاب ثوابها بالمن والأذى، سواء كان المن قلبيًا، أو قوليًا، فهذا مثله مثل المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر، والجامع بينهما ما فيهما من القدح في الإخلاص والاحتساب، وغياب ابتغاء الأجر والثواب.

والمثل المضروب هنا في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾، فمثل هذا المنفق الذي بطل أجره مثل الصفوان، وهو الحجر الأملس الذي عليه تراب، فأصابه المطر الشديد فتركه صلدًا، أي أملس لا شيء فيه من نبات ولا غيره.

فشبّه قلبه هنا بالصخرة؛ لقسوته، وعدم إخلاصه، وشبه أثر تلك الصدقة على قلبه بالغبار الذي علق بالصخرة فيظنه الظان تربة خصبة، ثم شبه المانع من قبول الصدقة -وهو فقد حقيقة الإخلاص والاحتساب- بالمطر؛ فإنه يبطل

أجر الصدقة فيزيل التراب، ويظهر الصخر صلدًا يمنع التراب من الثبات والنبات، فلا يقدرون على شيء من الزرع، كما أن المنفق لا يقدر بعد ذلك على شيء من الثواب؛ لزواله وذهابه.

المناسبات:

هذا المثل وارد في سياق الأمر بالصدقات، والمحافظة على أجرها وأثرها، وعدم إبطالها برياء يسبقها، أو عجب يلحقها، أو منّ وأذى يتبعها، في سلسلة وعظية بليغة دلالاتها، متتابعة حلقاتها:

فبين في الآية قبلها أن القول المعروف والكلمة الطيبة دون صدقة: خير من صدقة يتبعها أذى، ثم بين في المثل حال هؤلاء المبطلين لصدقاتهم.

وبين في الآية بعد المثل حال المخلصين في صدقاتهم؛ لمقارنة أهدى السبيلين، وهو من أساليب المقابلة، وبضدها تتبين الأشياء.

الهدايات:

- إنما شبه الله تعالى المان بالصدقة بالمرائي؛ لأن الصدقة معاوضة، ومعاملة مع الله تعالى؛ فكونه يمن فيها كأنه لاحظ العوض من المتصدق عليه، وصرف المعاملة إليه، فلذلك بطلت معاملته مع الله تعالى، وكان في ذلك صرف لخالص العبودية لغير رب البرية، ومستحقِّ الألوهية.

- وفي تشبيه المانّ المؤذي، والمرائي المنافق بالصفوان الذي عليه تراب وجه دقيق: وهو أن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالًا، كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل؛ لأنه تبين أن تلك الأعمال ما كانت لله تعالى، كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب الذي كان يوهم خصوبته.

- ولما ضرب مثلًا لنماء النفقة بالحرث والحبة التي تنبت سبع سنابل: ضرب مثلًا لإبطالها بخطأ الحارث في الحرث حينما يظن الصفوان الذي عليه تراب يصلح له.

- **وفيها**: أن أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذرا في أرض، فهو يضاعف له وينمو حتى يحصده في وقته، ويجده عند حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء، ولا يكون فيه قبول للبذر، ولا إنبات للزرع(١).

- **وفيها معنى دقيق**: وهو أن صدقة المان والمؤذي والمرائي قد تنفع غيرهم مع عدم انتفاعهم هم بثوابها، كما أن وجود التراب على الصفوان يفيد منافع من وجوه:

أحدها: أنه أصلح في الاستقرار عليه.

وثانيها: الانتفاع بها في التيمم.

وثالثها: الانتفاع به فيما يتصل بالنبات(٢).

- وفي اقتران الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله تعالى: إشارة إلى أن النفقة في سبيل الله لا تخرج خالصة، يبتغى بها وجه الله إلا مع تحقق الإيمان بالله واليوم الآخر الذي يقع فيه الجزاء بعد تقديم الأعمال الصالحة والخاسرة.

- وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]: ترهيبًا من هذه الخصال، التي متى تكاثرت على العبد، وأحاطت به خشي عليه من سلب الهداية التي مؤداها إلى الكفر.

---

(١) تفسير الرازي بتصرف: (٧/ ٤٧).

(٢) المرجع السابق.

- وكذلك لما كان كل من المؤذي والمرائي قد غطى محاسن عمله بما جره من السوء، وصف بالكفر الذي هو التغطية.

- كما أن فيها بيانًا بأن المؤمن الحق لا يتلبس بهذه الصفات القبيحة التي هي صفات للكافرين، فكما قال ﷺ في صفات المؤمنين: «**ورجل تصدق بصدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**»[1]، فلا منّ فيه، ولا أذى، ولا رياء، ولا سمعة.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المثل الثامن : صدقة المؤمن

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

المعنى الإجمالي:

وهنا يضرب الله تعالى مثلًا للذين ينفقون أموالهم بإخلاص، وإحسان وصدق، وذلك من فصاحة القرآن حيث ذكر نقيض ما تقدم في الآية السابقة؛ ليتمحض سبيل الهدى، فشبه هذا المنفق المخلص المتزكي الثابت على أمر الله بالجنة وهي البستان الكثير الأشجار.

«بربوة»: أي مكان مرتفع ضاح للشمس، مطل على النسيم العليل:

فإذا أصابها القطر الغزير: آتت أكلها ضعفين؛ لخصوبتها، وتهيئها لقبول المطر، وإنبات الثمر.

وإن لم يصبها وابل: فطل أي مطر خفيف، وقيل: هو الندى، أي وإن لم يصبها المطر الكثير فالقليل يكفيها.

وهذا ذكر لنوعي المتصدق:

فمنهم من ينفق النفقات الكثيرة فيكون أجره عظيمًا كأثر ذلك الوابل على البستان.

ومنهم من يكون إنفاقه قليلًا فيكون أجره بحسبه كالطل الذي يصيب الشجر فينفعها، ففي كلا الحالين لا يضيع الله أجره، ولا يذهب أثره، كما أن ذلك المطر قل أو كثر ينفع الشجر ويصلح الثمر، كما قال ﷺ: «**لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب، إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه، أو قلوصه، حتى تكون مثل الجبل، أو أعظم**»(١).

ثم ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فيثيبكم بقدر أعمالكم.

المناسبات:

مناسبة هذه الآية لما قبلها وما بعدها ظاهرة؛ ففيها عطف المقابلة فعطف حال المتصدق المخلص على حال المنفق المرائي المبطل لصدقته، «فلما مثل حال المنفق رئاء بالتمثيل الذي مضى أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخيل؛ فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا، وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالًا حسنة، تكسبها حسنًا ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه»(٢).

وسيأتي بعدها أيضا الكلام عن حال المحبط لعمله أيضا، متابعة للتقابل المؤكد للمعنى.

الهدايات:

- **في هذا المثل**: تشويق إلى ثواب المنفق ابتغاء مرضاة الله تعالى، قال السعدي: (فيا لله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة: لأسرعت

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم: (١٠١٤).

(٢) التحرير والتنوير: (٣/ ٥٠).

إليه الهمم، وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها، وكثرة آفاتها، وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر، فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهدًا في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟!

وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين، وباشر الإيمان به بشاشة قلبه، لانبعث من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات؛ رجاء المثوبات)[1]، فتأمل في هذا المثل الفائق، بهذا الأسلوب العذب الرائق.

- **وفيه**: أن المنفق الصادق تنفعه صدقته مهما قلّت، ولذلك لما لمز المنافقون الأنصاري الذي لم يجد إلا كفا من تمر: تولى الله تعالى الذب عنه، فهتك أستارهم، وأخرج أضغانهم، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوب:٧٩].

- وفي التشبيه بالربوة دلالة على أن المتصدق هو الأعلى مهما كان حاله، كما قال ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[2].

---

(١) تفسير السعدي: (١١٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٣٣٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٧١٥).

- في قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥]: دلالة على أن الصدقة شاقة على النفس تحتاج إلى ثبات قلب، وطمأنينة نفس؛ لذلك قال ﷺ: «**لا يخرج رجل شيئًا من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطانا**»(١).

- ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال البقاعي: (بالنظر في إصلاح العمل وإخلاصه بالحمل على الحلم والصفح، والصبر على جميع مشاق التكاليف؛ فإن من راض نفسه بحملها على بذل المال الذي هو شقيق الروح، وذلت له خاضعة، وقل طمعها في اتباعه لشهواتها، فسهل عليه حملها على سائر العبادات، ومتى تركها، وهي مطبوعة على النقائص زاد طمعًا في اتباع الشهوات، ولزوم الدناءات)(٢).

- **وفيها**: دلالة على «صيرورة هذا الابتغاء والطلب ملكة مستقرة في النفس، حتى يصير القلب بحيث لو صدر عنه فعل على سبيل الغفلة والاتفاق رجع القلب في الحال إلى جناب القدس، وذلك بسبب أن تلك العبادة صارت كالعادة والخلق للروح»(٣).

- وفي التعبير بمن، في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥]: دلالة على أنه تثبيت لبعض النفس؛ لأن البذل على نوعين: بذل للمال وبذل للنفس، وبهما

---

(١) رواه أحمد (٢٢٩٦٢)، والطبراني في الأوسط (١٠٣٨)، والحاكم: (١/ ٤١٧)، والبيهقي في السنن: (٤/ ١٨٧)، وقد ضعفه عدد من العلماء؛ لأن الأعمش لم يسمعه من سليمان بن بريدة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨١٤) والصحيحة (١٢٦٨).

(٢) نظم الدرر: (٤/ ٨٢).

(٣) تفسير الرازي: (٧/ ٤٩).

يتحقق البذل كاملًا؛ لذلك قرن بينهما في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التوبة:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

- **(كمثل جنة)**: فمن أنفق في السبيل جعل مثله كالحب، ومن أنفق ابتغاء لمرضاة الله جعل مثله كالجنة التي لها أصل ثابت تدور عليها الثمرات وهي ثابتة وتستغني من الماء بما لا يستغني به الحرث؛ لأن الحرث مستجد في كل وقت، كما أن الجهاد واقع عند الحاجة إليه والمنفق ابتغاء مرضاة الله ينفق في كل وجه دائم الإنفاق، فكان مثله مثل الجنة الدائمة ليتطابق المثلان بالممثولين، فعمت هذه النفقة جهات الإنفاق كلها في جميع سبل الخير[1].

(١) نظم الدرر: (٤/ ٨٤).

المثل التاسع: الأعمال الخاسرة

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

المعنى الإجمالي:

ضرب الله مثلا في هذه الآية لحبوط العمل، وذلك بعد أن يعمل الرجل عملًا صالحًا من الصدقات ونحوها، حتى إذا كان في آخر عمره تعرض لما يذهب حسناته، وأغرق أعماله بما يبطلها.

ففي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يوما لأصحاب النبي ﷺ: «**فيمن ترون هذه الآية نزلت؟**».

قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم.

فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين.

قال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضربت مثلا للعمل.

قال عمر: أي عمل؟

قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان،

فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله)[1].

فيشبه الله من هذا حاله برجل كانت له جنة: أي بستان من نخيل وأعناب، وله من أصناف الثمرات وأنواع الطيبات.

وهذه الجنة تجري من تحتها الأنهار التي تسقيها بغير مؤنة.

وأصاب هذا الرجل الكِبَر وتقدم به العمر فضعف عن العمل.

وكان له ذرية أي أولاد ضعفاء لا يستطيعون معاونته.

فبينما هو على هذه الحال من الضعف والحاجة، أصاب هذه الجنة إعصار، وهي ريح عاصفة فيها نار تحرق ما تمر عليه، فاحترقت هذه الجنة، فكانت حسرته أعظم حسرة بسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها، فتراكمت عليه الهموم، وتتابعت عليه الأحزان والغموم، وهكذا ذلك العامل الذي ختمه بسوء عند استيفاء الأعمال وإحراز الأجور لا يجد إلا كما وجد صاحب تلك الجنة من الحسرة والندامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩]، فلو تصور المؤمن هذه الحال لم يقدم على ما فيه مضرته، ولكن ضعف الإيمان، وقلة العقل والبصيرة تزين للإنسان سوء الأعمال، لذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦] في زوال هذه الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

---

(١) أخرجه البخاري، في تفسير سورة البقرة، باب قوله ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البقرة:٢٦٦]، رقم: (٤٥٣٨).

المناسبات:

ولما قدم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن المن مبطل للصدقة، ومثّله بالرياء وضرب لهما مثلًا، ورغب في الخالص، وختم ذلك بما يصلح للترهيب من المن والرياء رجع إليهما؛ دلالة على الاهتمام بهما، فضرب لهما مثلًا أوضح من السالف، وأشد في التنفير عنهما، والبعد منهما(١).

ثم أعقبه بالأمر بالنفقة من الطيبات بعد الإخلاص فيها، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]، فبدأ بصلاح النيات، ثم صلاح العمل باختيار الطيبات.

الهدايات:

- قوله: ﴿أَيَوَدُّ﴾ [البقرة:٢٦٦]، ولم يقل: أيريد؛ لأن «المودة هي المحبة التامة، ومعلوم أن محبة كل أحد لعدم هذه الحالة محبة كاملة تامة فلما كان الحاصل هو مودة عدم هذه الحالة ذكر هذا اللفظ في جانب الثبوت فقال أيود أحدكم حصول مثل هذه الحالة تنبيها على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه»(٢).

- **في الآية:** ضرورة المحافظة على العمل من محبطاته القبلية والبعدية، من الرياء والعجب والمن والأذى، فإنها أشق من مجرد العمل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

---

(١) نظم الدرر: (٤/ ٨٥).

(٢) تفسير الرازي: (٧/ ٥١).

- **وفيها**: دلالة على أن حاجة الإنسان إلى الأعمال الصالحة أعظم من حاجته إلى هذه الجنان والبساتين والأنهار، بل الدنيا كلها؛ لأن هذا كله مآله إلى الزوال؛ لذلك قال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨]، وقال ﷺ: «**لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**»(١)، وقال: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

- وفي تشبيه العمل الصالح بالجنة ذوات الثمار والأنهار سر بديع، ووجه بليغ، يمكن تلخيصه بما يلي:

- أن العمل الصالح يورث السعادة والطمأنينة التي هي جنة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

- كما أن العمل الصالح سبب للرزق، كما قال ﷺ: «**وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم من الجنة، رقم (٢٦٤٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله تعالى، رقم (١٨٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل، رقم (٤١٦)، وقال: «حديث عائشة حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٣) رواه الطبراني في الكبير: (٢/ ١٠٠)، وفي الدعاء (٢/ ٧٩٩) ت: سعيد البخاري، والحاكم في المستدرك: (١/ ٤٩٣)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني، رقم (١٥٤)، لكنه تكلم في هذه الزيادة.

- وفي المآل؛ فإن العمل الصالح عاقبته الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، فشبه بها؛ لأنه سبب يؤدي إليها.

- **وفيها**: شدة حسرة من يضيع دنياه ويبطل أعماله ويهمل أخراه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦].

- **وفي المثل**: بيان حاجته إلى العمل الذي يصلح به ما احترق من جنته، وإلى المال الذي ينفق به على ذريته، والمال والنفس هما قوام ما يملكه العبد لصلاح عمله، فمادام قادرا على استثمارهما في دنياه فليبادر قبل أن يفقدهما حيث لا ينفع العمل والصدقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠،١١].

المثل العاشر: الذي يتخبطه الشيطان

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

المعنى الإجمالي:

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصلات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والآنات: شرع في ذكر أكلة الربا، وأموال الناس بالباطل، وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم، وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، وبين أنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياما منكرا(١).

وازداد جرمهم مع أكلهم الربا حينما استحلوا ذلك، وجادلوا عنه بالباطل حيث شبهوه بالبيع، مع الفرق الكبير بينهما؛ في المنافع والمفاسد، ولذلك أحل الله البيع لمنافعه، وحرم الربا لمفاسده، فمن جاءه النهي عن ذلك فانتهى فله ما سبق من المعاملة، ومن خالف النهي بعد ذلك، وعاد إلى الربا فمصيره العذاب المهين، فإن استحله كان خالدا في النار.

---

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٧٠٨)، بتصرف يسير.

المناسبات:

«لما كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد ذكر النفقة مما أفاض عليهم من الرزق من أول السورة إلى هنا في غير آية، ورغب فيها بأنواع من الترغيب في فنون من الأساليب، وكان الرزق يشمل الحلال والحرام، وكان مما يسترزقون به قبل الإسلام الربا، وهو أخذ مجانًا، وهو في الصورة زيادة، وفي الحقيقة نقص وعيب، ضد ما تقدم الحث عليه من الإعطاء مجانًا، وهو في الظاهر نقص، وفي الباطن زيادة وخير؛ نهاهم عن تعاطيه ونفرهم منه، وبين لهم حكمه، وأنه خبيث لا يصلح لأكل ولا صدقة»(١).

ثم بين أن الله تعالى يمحقه، ويبارك في الصدقة، ثم رغب في العمل الصالح.

الهدايات:

- في ذكر هذا المثال بعد أمثلة الصدقة مناسبة بليغة كما سبق؛ فإن الصدقة ضد الربا، فالصدقة إنقاص للمال؛ موافقة لأمر الله تعالى، والربا زيادة في المال؛ مخالفة لأمر الله تعالى؛ لذلك جمع الله بينهما بعد ذلك، وبيّن تضاد حكمهما، فقال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

- وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة:٢٧٥]: يراد بهم أهل الجاهلية أصالة، وكل من فعل فعلهم؛ «ومن عادات القرآن أن يذكر أحوال الكفار إغلاظا عليهم، وتعريضا بتخويف المسلمين، ليكره إياهم لأحوال أهل الكفر. فكل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار فمراد منه أيضا تحذير المسلمين من مثله في الإسلام»(٢).

---

(١) نظم الدرر: (٤/ ١٠٨)، وذكره بنحوه قبله أبوحيان في البحر المحيط: (٢/ ٧٠٤).
(٢) التحرير والتنوير: (٣/ ٨١) بتصرف.

- وفي قوله: ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]: إنما عبر بالأكل؛ لكونه من أعظم المنافع وأهمها، وإلا فتحرم سائر صور الانتفاع.

- وكذلك في التعبير بالأكل تصوير لحالهم، ودلالة على الحرص والشره الذي يذم فيه صاحبه حتى في المباحات، فضلا عن السحت والمحرمات.

- والتعبير بالمضارع: ﴿يَأْكُلُونَ﴾، دون الماضي فيه إشارة إلى أن الحكم يختص بالمصر والمستمر في أكله، أما من فعله سابقا ثم تركه كبعض الصحابة فهم غير داخلين في هذا الوعيد.

- في قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]: «إن كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى: لا يقومون -يوم يقوم الناس لرب العالمين- إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان، أي إلا قياما كقيام الذي يتخبطه الشيطان، وإن كان القيام المجازي فالمعنى إما على أن حرصهم ونشاطهم في معاملات الربا كقيام المجنون تشنيعا لجشعهم، قاله ابن عطية[١].

ويجوز على هذا أن يكون المعنى تشبيه ما يعجب الناس من استقامة حالهم، ووفرة مالهم، وقوة تجارتهم، بما يظهر من حال الذي يتخبطه الشيطان حتى تخاله قويا سريع الحركة، مع أنه لا يملك لنفسه شيئا»[٢].

- ويمكن حمل القيام على جميع الحالات؛ ففي إطلاقه إشعار بحالهم في الدنيا والبرزخ والآخرة، ففي إعلامه إيذان بأن آكله يسلب عقله، ويكون بقاؤه

(١) كما في المحرر الوجيز: (١/ ٣٧٢).
(٢) التحرير والتنوير: (٣/ ٨١).

في الدنيا بخرق لا بعقل، يقبل في محل الإدبار، ويدبر في محل الإقبال، وهو مؤيد بالمشاهدة، فإنا لم نر ولم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة، ولا يشهر بفضيلة، بل هم أدنى الناس وأدنسهم(١).

- وفيها: إثبات الشياطين، وهي كفرة الجن، وأنها تتخبط الإنس، وتتلبس بهم، وتؤثر فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، وقال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(٢).

- في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ [البقرة:٢٧٥]: «أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والثاني بالحرمة وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز»(٣).

- في قوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة:٢٧٥]: ولم يتعرض سبحانه لإبطال قياسهم؛ إشارة إلى وجوب التسليم لحكم الله تعالى، وإن لم تبلغه عقولهم، وعدم معارضته بأقيسة موهومة، وآراء مدخولة.

- وفي هذه الجملة تقرير بأن القياس إذا صادم النص فهو فاسد الاعتبار، فإنما يستخدم القياس حيث لم يوجد نص يدل على حكم الفرع.

---

(١) نظم الدرر: (٤/ ١١٠) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨١)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به، رقم: (٢١٧٥).

(٣) تفسير الرازي: (٧/ ٧٧).

- قوله: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٥]: فالمغفرة بفضل الله ورحمته، والعذاب بعدل الله تعالى، فكله قائم على علمه وحكمته.

- قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥]: عاد إلى استحلال الربا حتى يصير كافرا.

فالخلود لا يكون إلا للكافر؛ لأن قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٧٥]: يفيد الحصر فيمن عاد إلى قول الكافر، وكذلك قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥] : يفيد الحصر، وهذا يدل على أن كونه صاحب النار، وكونه خالدا في النار لا يحصل إلا في الكفار(١).

- **وفيها**: أن الشرع جاء لمراعاة مصالح الناس، ودفع المفاسد عنهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؛ لذلك حرم الربا؛ لأن فيه أخذا للمال بغير عوض، ومصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات، كما أنه يفضي إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان، وكذلك هو يزيد الفقير فقرًا، والغني طغيانًا، وغير ذلك من الحكم البليغة.

(١) ينظر: تفسير الرازي: (٧/ ٧٩).

المثل الحادي عشر: كمثل آدم

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران ٥٩].

المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى؛ محتجًا على النصارى الزاعمين بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكا لله في الربوبية.

وهذا ليس بشبهة فضلًا أن يكون حجة؛ لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدل، وعلى أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى.

ومع هذا فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنوة والإلهية في المسيح، فادعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى[1].

---

(١) تفسير السعدي (١٣١).

المناسبات:

الآيات قبل هذا المثل في تقرير بشرية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه من خلق الله تعالى الذي أكرمه بهذه المعجزة، وهي كونه خلق بغير أب، ثم أكرمه بالاصطفاء للنبوة، وأن هذا لا يستلزم عبادته، بل عبادة الذي خلقه وأرسله، فضرب هذا المثل بآدم.

ثم أعقب هذه الحجة العقلية بالدعوة إلى المباهلة بعد المكابرة.

الهدايات:

- **في المثل**: بيان لقدرة الله تعالى وعظمته، وأنه على كل شيء قدير، وهو غير محتاج للأسباب، وإنما قدرها ليسير الخلق على هدي مستقيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:٢،٣].

- **وفي المثل مع إيجازه**: إفحام مبهر للخصم، فمن كان يؤمن بقدرة الله تعالى، وأنه خلق آدم من غير أبوين، فليؤمن يقينا بقدرة الله تعالى على خلق عيسى من غير أب؛ لأن خلق آدم أعظم معجزة من خلق عيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

- **وفيه**: أن المخلوق لا يصلح أن يكون إلاها، فهو مسبوق بعدم، وهذا يستلزم تعدد الآلهة، فكل إله ينبغي أن يسبقه إله، وهو باطل مناف لمعنى الألوهية والربوبية.

- **وفيه**: تهافت عقيدة التثليث، فقوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة:١١٧]: لا يعني أن كلمة الله تعالى حلت في عيسى، وإلا فآدم بالكلمة، كما في الآية، بل غيره من الخلق خلق بها، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، فهل هي آلهة أيضًا؟!

- **وكذلك فقولهم**: إن روح الإله حلت في عيسى: باطل؛ فالآية الواردة في حق عيسى ورد مثلها في حق آدم، فقال في حق عيسى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١]، وقال في حق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩]، فمن عبد عيسى لذلك فليعبد آدم كذلك، ولا وجه للتفريق بينهما.

- قوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩]: وقيل في الحكمة من «خلق الإنسان من تراب؛ ليكون مطفئا لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب، وإنما خلقه من الماء؛ ليكون صافيا تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طينا»[(١)].

- في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]: لم يقل: فكان، وفي ذلك إشارة إلى أن كل ما يقول الله تعال له: ﴿كُن﴾: فإنه سيكون، ومنه آدم الذي كان، وخرجت منه هذه الذرية، ففي ذلك تقرير لعموم مشيئته وخلقه، وإن كان الكلام في خصوص آدم.

(١) تفسير الرازي: (٨/ ٢٤٣).

المثل الثاني عشر: نفقة الكفار

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا للكفار الذين ينفقون أموالهم لمصالح دنيوية، أو لاكتساب الثناء والذكر والسمعة، أو للصد عن سبيل الله بالريح التي فيها «الصر» وهو البرد الشديد، وقيل: النار، وقيل: الصوت الشديد، وهي متلازمة، يراد بها التأكيد على إهلاك حرثهم، وإحباط عملهم، فكان كفرهم سببًا لإبطال ثوابهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

ثم تكون عاقبتهم إلى النار، وحسرتهم على ما أنفقوا في الصد عن سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

فهم الذين ظلموا أنفسهم بسوء أعمالهم، ولم يظلمهم الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم

إياها، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[١].

المناسبات:

«لما ذكر تعالى أن ما فعله المؤمنون من الخير فإنهم لا يحرمون ثوابه، بل يجنون في الآخرة ثمرة ما غرسوه في الدنيا، أخذ في بيان نفقة الكافرين، فضرب لها مثلًا اقتضى بطلانها، وذهابها مجانًا بغير عوض»[٢].

وقال البقاعي: «ولما كان ربما قيل: فما حال ما يبذلونه في المكارم ويواسون به في المغارم؟ ضرب لذلك مثلًا جعله هباء منثورًا، ضائعًا وإن كثر بورًا، كأن لم يكن شيئًا مذكورًا»[٣].

ولذلك نهى بعد هذا المثل عن اتخاذ هؤلاء الكفار أولياء؛ لئلا يكون مآلهم كحالهم، ولما يترتب على ذلك من خسارة في العاجل والآجل.

الهدايات:

- في هذا التشبيه جمع لأنواع نفقات الكافرين؛ حيث إنه يفهم على وجهين:

إما أن نفقتهم هي الحرث الذي أفسده كفرهم، فتكون نفقتهم في الوجوه المشروعة؛ لذلك شبهها بالحرث.

وإما أن نفقتهم هي الريح التي أفسدت جميع أعمالهم، فتحمل النفقة هنا على النفقة في الصد عن سبيل الله.

- **فيه:** أنه لا تقبل الأعمال إلا على قاعدة الإيمان، والإخلاص للرحيم

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).
(٢) البحر المحيط: (٣/ ٣١٤).
(٣) نظم الدرر: (٥/ ٣٥).

الرحمن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(١).

- في التعبير بقوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران:١١٧]: دلالة على القوة على جميع تفسيراتها، فهي ريح ذات برد شديد تحرق الزرع، وتتلفه وتيبسه، وفيها صوت شديد لقوتها، فتذهب حرث أولئك بظلمهم، وتفسد ثمرتها وتحرقه، وتجعله هباء منثورا، وهكذا نفقة هؤلاء الكفار لا ثمرة فيها، ولا أجر ولا ثواب، كما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

- واختيار الحرث هنا؛ لكونه أعظم منافع العباد الدنيوية، فمنه طعامهم، وعليه قوامهم، وكذلك الأعمال الصالحة هي أعظم المنافع الأخروية، لكنها إن لم تقم على الإيمان كانت هباء منثورا.

- في قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ..﴾ [آل عمران:١١٧]: أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئا، وأن عدم قبول نفقاتهم هو بسبب أفعالهم، فالجزاء من جنس العمل.

- **وفيها**: أن مصائب الدنيا إنما هي بمعاصي العبد، وظلمه لنفسه، ويعفو عن كثير، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورة:٣٠]، وقد تكون ابتلاء للصالح لرفع درجاته.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

المثل الثالث عشر: كالذي استهوته الشياطين

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١].

المعنى الإجمالي:

يحكي الله تعالى قول المؤمنين الذين ينكرون عبادة غيره سبحانه، والرجوع إلى الكفران، والارتداد على الأعقاب بعد أن هداهم ربهم، فيقول: قل يا أيها الرسول للمشركين:

مثل الذي يكفر بعد إيمانه كمثل رجل كان في طريق مع أصحاب له، فضلّ الطريق فجعلت الشياطين تستهويه وتحيره، فهو تائه في الأرض، ناكب عن السبيل، مع أن أصحابه ينادونه ويدعونه، وهو معرض عن ذلك، وهذا أحد المعنيين.

والمعنى الثاني: له أصحاب من الشياطين يدعونه إلى الهدى بزعمهم، وتلبيسهم وتمويههم، وعلى هذا المعنى يكون هذا الرجل كافرًا أصليًا، وليس مرتدًا.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٧١]: على المعنى الأول: وأن الذين يدعونه إلى الهدى هم المؤمنون يكون المعنى هنا أن

الهداية الحقيقية إنما هي من الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، فإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداه الله تعالى.

وعلى المعنى الثاني: وهو أن الذين يدعونه هم الشياطين يكون المعنى هنا واضحًا، وهو أن ما يزعمونه هدى ليس هو الهدى، وإنما الهداية والرشاد فيما جاء به رب العباد سبحانه، لذلك قال: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١]، فحقيقة الهداية هي الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة.

المناسبات:

تقرر في الآيات السابقة أن غير الله تعالى لا يمنع من الله تعالى، ولا يغني عنه شيئًا، لا آلهتهم التي زعموا أنها شفعاؤهم، ولا غيرها، في قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

فثبت بذلك أنهم على غاية البينة من أن كل ما سواه لا ينفع شيئًا ولا يضر، فلذلك ذكروا هذا المثل فيمن ينقض يقينه بالأوهام والظنون.

ثم أمر بعد ذلك بالصلاة والزكاة والتقوى، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٧٢]، وذلك لتثبيت هذا اليقين، والاستقامة على أمر الدين.

الهدايات:

- في هذا المثل على المعنيين: أن كل من لم ينشرح صدره للإيمان يبقى موسوسًا شاكًا، مترددًا بين دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة، ودواعي الشيطان والهوى والنفس الأمارة بالسوء؛ فلذلك يضطرب قلبه، ويضيق صدره، ويختلط أمره، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

- **وفيه**: تشبيه الهداية بالطريق، وأن من تنكبها فقد ضل طريقه، وهو وجه ظاهر، فالهداية صراط من سار عليه تجاوز به النار إلى الجنات، وبمقدار سيره على طريق الهداية يكون اجتيازه للصراط.

- **وفي هذا المثل**: بيان لأثر الرفقة، فعلى المعنى الأول الرفقة الصالحة تناديه إلى طريق الهداية، وعلى المعنى الثاني يدعوه رفاق السوء من شياطين الإنس إلى الغواية، ويزينون له الباطل.

- وفيه: أن أصل الضلال من اتباع الهوى، وهو الباعث الأول له، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

- قال الرازي: «واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه؛ لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة، وذلك يوجب كمال التردد، والتحير.

وأيضا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالًا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال»[1].

- قوله: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١]: انتقال إلى خطاب الحاضرين؛ لأن من آمن واهتدى وأسلم صار قريبًا إلى الله تعالى، فناسب العدول عن خطاب الغائب إلى الحاضر.

- وفي هذه الجملة: أن حقيقة الهداية تكون بالاستسلام، والانقياد لأمر الله تعالى، وليس مجرد الاعتراف بأن ما جاء به هو الحق والهدى؛ فإن الإيمان اعتقاد وقول وعمل.

(١) التفسير الكبير: (١٣/ ٢٦).

المثل الرابع عشر: يصّعّد في السماء

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

المعنى الإجمالي:

يبين الله تعالى لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة ضلاله وشقاوته:

فمن انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأن بذلك قلبه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذًا به غير مستثقل، فإن هذا علامة على أن الله تعالى قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم طريق.

وأن علامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقًا حرجًا، أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير، كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصّعّد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء، الذي لا حيلة له فيه[1].

﴿يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾ [الأنعام:١٢٥]: **وفيه خمسة أقوال:**

---

(١) تفسير السعدي: (٢٧٢).

أحدها: أنه الشيطان، يعني: أن الله يسلِّطه عليهم.

والثاني: أنه المأثم.

والثالث: أنه مالا خير فيه.

والرابع: العذاب.

والخامس: أنه اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة[١].

ويمكن حملها على الجميع؛ لعدم التعارض بينها.

المناسبات:

«لما تقدم أنه تعالى أعلم بمن طبع على قلبه، فلا ينفك عن الضلال، ومن يقبل الهداية في الحال أو المآل، وأن مكر المجرمين إنما هو بإرادته ونافذ قدرته، علم أن الأمر أمره، والقلوب بيده، فتسبب عن ذلك»[٢] تقرير أن الهداية والضلال بتقديره ومشيئته.

ثم بين بعد هذا المثل أن صراط الله المستقيم قد فصلته الآيات، في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٦]، في إشارة إلى اختيار العبد، ومشيئته، فمن شاء تذكر، ومن شاء تنكر.

وقال ابن عاشور: «الفاء مرتبة الجملة التي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وما ترتب عليه من التفاريع والاعتراض.

وهذا التفريع إبطال لتعللاتهم بعلة: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وأن الله منعهم ما علقوا إيمانهم على حصوله، فتفرع على ذلك

---

(١) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: (٢/ ٧٦).

(٢) نظم الدرر: (٧/ ٢٥٨).

بيان السبب المؤثر بالحقيقة إيمان المؤمن وكفر الكافر، وهو: هداية الله المؤمن، وإضلاله الكافر، فذلك حقيقة التأثير، دون الأسباب الظاهرة، فيعرف من ذلك أن أكابر المجرمين لو أوتوا ما سألوا لما آمنوا، حتى يريد الله هدايتهم إلى الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]»[(١)].

الهدايات:

- **في الآية**: بيان أن الهدى والضلال من الله تعالى، بإرادته الكونية القدرية، فهداية التوفيق بمحض فضله تعالى، والضلال بمحض عدله سبحانه، كما قال الطحاوي: «**يهدي من يشاء، ويعصم، ويعافي فضلًا، ويضل من يشاء، ويخذل، ويبتلي عدلًا، وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله**»[(٢)].

- **وفيها**: أن السعادة الحقيقية، وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، إنما تكون بالهداية، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

- وعلى ضد ذلك: فإن ضيق الصدر، واضطراب القلب، وشقاوة الروح: إنما تكون بالضلال، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، فهو في ضنك، وإن استمتع ظاهرًا بشهوات عارضة.

- **وفيها**: بيان أهمية الهداية، وأنها من أعظم النعم التي تستوجب الشكر، فهي كالهواء الذي يحتاج إليه الإنسان ليتنفس ويحيى، ومتى فقده ضاق صدره حتى يموت، وهكذا الضلال فهو ضيق إذا استمر بصاحبه مات قلبه،

---

(١) التحرير والتنوير: (١٨/ ٥٧).

(٢) شرح الطحاوية ص (١٤٨).

وانعدمت حياته.

- وفي التعبير بالإسلام دون الإيمان: إشارة إلى أن الهداية الحقيقية هي التي يترتب عليها العمل، مع أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، لكن ذكر الإسلام فيه تأكيد على الاستسلام والانقياد والعمل.

- وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]: دلالة على عدل الله تعالى، وأن الهدى والضلال بحسب استعداد النفس، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

- وفي المثل إعجاز علمي؛ حيث شبه الضلال في ضيق الصدر بالذي يصّعّد إلى السماء، وهذه حقيقة علمية حيث يضيق النفس كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى(١).

- وفي التعبير بالصعود مع أن مرتبة الضلال هي السفل والهبوط هداية دقيقة: وهي أن منزلته وضيعة، ومكانه السفل، فيشق عليه الارتفاع، ويضيق صدره لذلك.

- **وفيها**: إشارة إلى أن السعادة والشقاوة لا تقاس بظاهر الإنسان، وسلامة بدنه، ورغد عيشه، بل السعادة أمر قلبي قد توجد مع عدم الأسباب الظاهرة، كما في طمأنينة المؤمن في جميع أحواله في السراء والضراء، كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(٢).

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: (٢/ ٤٦)، من دلائل التوحيد للتليدي ص(١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، عن صهيب ابن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المثل الخامس عشر: الميت والحي

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

المعنى الإجمالي:

هذه الآية العظيمة فيها بيان حال أهل الهداية، وحال أهل الضلالة، فالذي كان ميتا فأحياه الله تعالى: مثل يراد به من هداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنقذه من الضلال، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، كمن مثله في الظلمات، وهو مثل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال.

كذلك كما زين للمؤمنين إيمانهم، زين للكافرين ما كانوا يعملون(١).

المناسبات:

«أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله: ذكر مثلا يدل على حال المؤمن المهتدي، وعلى حال الكافر الضال، فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتا فجعل حيا بعد ذلك، وأعطي نورا يهتدي به في مصالحه، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها،

(١) ينظر: تفسير البيضاوي: (٢/ ١٨٠).

لا خلاص له منها فيكون متحيرا على الدوام»[١].

ثم ذكر في الآية بعدها أن صراع الهدى والضلال، والحق والباطل سنة ماضية، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣].

الهدايات:

- **فيها**: تشبيه المؤمن بالحي، ووجه الشبه ظاهر، فالمؤمن آمن بالوحي الذي هو روح تحيا به القلوب والأبدان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، على المعنيين: لما يحييكم حياة مطمئنة في الدنيا، أو يحييكم الحياة الخالدة في الآخرة.

- **وبالمقابل فيها**: تشبيه الكافر بالميت؛ لأن المؤمن كان ميتا حال كفره فأحياه الله تعالى بالإيمان، ووجه موته أنه لم تحله الروح الحقيقية، وهي روح الوحي، فهو أشبه بالميت الذي لا ينبض قلبه، ولا يذكر ربه، الذي به حياته، لذلك قال ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت**»[٢].

قوله: ﴿كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾: فيها إشارة إلى الأدب مع الله تعالى، فهو كان ميتًا ضالًا بنفسه واختياره، مع أنه بتقدير الله تعالى، إلا أنه لم يضفه لفعله سبحانه،

---

(١) تفسير الرازي: (١٣/ ١٣٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله، رقم (٦٤٠٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم (٧٧٩)، بلفظ: «مثل البيت الذي لا يذكر الله فيه والبيت الذي يذكر الله فيه مثل الحي والميت».

وأما الحياة والهداية فهي بإحياء الله تعالى له مع اختياره، فأضافها إليه سبحانه بصيغة الجمع التي تفيد التعظيم.

- **وفيها**: تشبيه ما عند المؤمن من الهدى والحق بالنور، فوحي الله تعالى نور يضيء له سبيله، وينفع به غيره، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧].

- **وبالمقابل كذلك**: شبه الكافر في ضلاله بمن يتخبط في الظلمات؛ لأنه سلب ذلك النور، وهذا مثل متكرر في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

- وفي إفراد النور وجمع الظلمات هداية ظاهرة: وهي أن صراط الله تعالى واحد، والسبل التي تصد عنه متفرقة ومتعددة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

المثل السادس عشر: في سم الخياط

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠].

المعنى الإجمالي:

بين الله تعالى عاقبة المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها، وأنهم منذ قبض أرواحهم تغلق دونهم أبواب السماء فتهبط في أسفل سافلين، ثم بين سبحانه استحالة دخولهم الجنة، وضرب لذلك مثلًا، وهو أن الجمل وهو على قول: الحبل السميك الذي تربط به السفن، لا يمكن أن يدخل في ثقب الإبرة.

وقال بعضهم: بل هو الجمل حقيقة، فيستحيل دخوله في ثقب الإبرة، فكذلك لا يمكن لهؤلاء أن يدخلوا الجنة، بل هم خالدون في النار، وهو جزاء المجرمين في الآخرة.

المناسبات:

جاء المثل بيانًا «لخلود الفريقين في النار، الواقع في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، فأخبر الله بأنه حرمهم أسباب النجاة، فسد عليهم أبواب الخير والصلاح، وبأنه حرمهم من دخول الجنة.

وأكد الخبر بإنّ لتأييسهم من دخول الجنة، لدفع توهم أن يكون المراد من

الخلود المتقدم ذكره الكناية عن طول مدة البقاء في النار، فإنه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى»[١].

ثم أكد ذلك في الآية بعدها ببيان عاقبتهم، وأنهم في النار، ولهم من جهنم مستقر، وهي تحيط بهم من كل جانب.

الهدايات:

- **فيها:** تشبيه دقيق لاستحالة دخول الكفار الجنة، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ [العنكبوت:٢٣]، وهو أسلوب بليغ بديع، فقد كانت العرب تمثّل للشيء البعيد المنال، بقولهم: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب، وحتى يَبْيَضَّ القار، إلى غير ذلك من الأَمثال.

كما قال الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وصار القار كاللبن الحليب[٢]

- وفي اختيار هذا التشبيه: إشارة ظهرت بعد تأمل، وهي أن هؤلاء لما استكبروا عن الحق، وتعاظموا في أنفسهم، ولم يدخلوا في سلكه، ولم ينظموا في نظمه: حرم عليهم الجنة، وشبه استحالة دخولهم الجنة لتكبرهم باستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة لضخامته، والله أعلم بمراده.

- وفي عطف الاستكبار على التكذيب: بيان للتلازم بينهما، فإن من يكذب بآيات الله تعالى إنما يحمله على ذلك تكبره وظلمه وعلوه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

---

(١) التحرير والتنوير: (٨/ ١٢٥).

(٢) تفسير السمعاني: (٢/ ١٨٢).

- قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:٤٠]: فيها إشارة إلى عدم رفع أعمالهم، وعدم نزول البركة والخير عليهم من السماء، وهي مما قيل في معانيها.

- وفي الآية: أن للسماء أبوابا حقيقية، وهي مغلقة، ولا تفتح إلا بإذن الله تعالى، كما جاء في حديث الإسراء، أنه ﷺ قال: «**فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، ففتح**»(١).

- قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠]: فهم استحقوا ذلك بما كسبت أيديهم، وبإجرامهم في حق أنفسهم.

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧).

المثل السابع عشر: البلد الطيب

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

المعنى الإجمالي:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فأخبر بأنّ الأَرض كلّها جنس واحد، إلا أنّ منها طيّبة تلين بالمطر، ويحسن نباتها، ويكثر ريعها، ومنها سبخة، لا تنبت شيئًا، فإن أنبتت فممّا لا منفعة فيه، وكذلك القلوب، كلّها لحم ودم، ثمّ منها ليّن يقبل الوعظ، ومنها قاسٍ جافٍ لا يقبل الوعظ، فليشكر الله تعالى من لانَ قلبه بذكره(١).

وفي ذيل الآية: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨]: إلمام إلى كونه تمثيلًا، وهو بحاجة إلى تدبر، مع الشكر على النعم الدينية، والدنيوية.

المناسبات:

لما قال سبحانه في الآية قبلها: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:٥٧]: تمم هذا المعنى بكيفية ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة، والأرض السبخة، وتلك عادة الله في إنبات الأرضين، وهو كذلك حال الإنسان من هذا الوحي، الذي هو كالغيث في إحيائه للقلوب، وإنباته للخير والهدى.

---

(١) مجمع البيان: (٢/ ٤٣٢).

ولذلك أعقب هذا المثل بقصص الأنبياء، وأحوال الناس من الوحي الذي جاؤوا به، فتأمل هذا التناسق العجيب.

الهدايات:

- في هذا المثل البديع: اختار الله تعالى الأرض؛ لتكون هي المشبه به؛ لأن الإنسان خلق منها، وتختلف صفاته بحسب صفة الأرض التي كانت منها طينته، كما قال ﷺ: «**إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزْن، والخبيث والطيب، وبين ذلك**»(١).

- فكما أن تربة الأرض تختلف خصوبة وجدبا: فكذلك هذا الإنسان، وقد فصل النبي ﷺ هذا المثل فقال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلتِ الماء فأنبتتِ الكلأ والعشْب الكثير، وكانت منها أجادِب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلم، ومثل من لم يرفعْ بذلك رأْسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به**»(٢).

---

(١) رواه أحمد: (٤/ ٤٠٠، ٤٠٦)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٣)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، رقم (٢٩٥٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٩)، والسلسلة الصحيحة (١٦٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم (٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم رقم (٢٢٨٢).

- وفي هذه الآية: إشارة إلى ضرورة الأدب مع الله تعالى، فإنه في الطيب قال: (بإذن ربه)، ولم يذكر إذنه في الخبيث مع أن الأمر كله لله تعالى، وهذا كثير في القرآن كما سبق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، فحكى عن الجن: أنهم في الشر بنوا الفعل لما لم يسم فاعله، وفي الخير نسبوه إلى ربهم.

وكذلك في قصة الكهف: لما ذكر خرق السفينة، وقتل الغلام، لم ينسبه إلى الله تعالى، ولما ذكر إصلاح الجدار قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢]، مع أن الكل بمشيئة الله تعالى.

- في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨]: مناسبة دقيقة:

وهي الشكر على المشبه، وهو الإيمان والهدى، والشكر على المشبه به، وهو النبات والرزق.

فالأولى: نعم دينية تستوجب الشكر؛ لزيادتها، والثبات عليها. والثانية: نعم دنيوية تستحق الشكر؛ لزيادتها، والمحافظة عليها.

والأولى أعظم وأشرف فهي الغاية، والثانية وسيلة لها.

المثل الثامن عشر: كمثل الكلب

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥- ١٧٦].

المعنى الإجمالي:

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رجلًا[1] آتاه علمًا بآياته، ولكنه تنكب العمل بمقتضاه، واتبع هواه، وآثر سخط مولاه، على رضاه جل في علاه، فظفر به الشيطان فزاده إغواء وضلالًا.

ولو شاء الله تعالى لرفعه بالآيات وعصمه عن الغواية، ولكنه لم يسلك سبيل الهداية، وإنما أخلد إلى الأرض، وركن إليها، ولاذ بها، فشبه الله تعالى من كان هذا حاله بحيوان من أخبث الحيوانات المعلومة لكل أحد، وهو الكلب، الذي يلهث في جميع أوقاته، فهذا مثل أولئك المكذبين، فاقصص هذا القصص للناس؛ حتى يتفكر كل واحد بحاله، ويعتبر به.

---

(١) وقد اختلف فيه، فجاء أن اسمه: بلعام بن باعوراء، والعبرة في وصفه، وليس في اسمه، ينظر: زاد المسير لابن الجوزي: (٢/ ١٦٨).

المناسبات:

ذكر الله سبحانه قبل هذا المثل الميثاق الذي أخذه تعالى على أرواح بني آدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فكانت هذه هي الحجة الأولى، وهي الحجة الفطرية، ثم أرسل إليهم الرسل بالآيات فكانت هي الحجة الثانية.

فبين في هذا المثل أحوال الناس مع هذه الحجة، والتي من كذب بها فقد نقض ميثاقه الأول المستقر في فطرته، وخرج عن طبيعته إلى طبائع بعض الحيوانات.

ولذلك أعقب هذا المثل ببيان أحوال الناس في الهدى والضلال، ثم بيان أن بعض الناس أضل من الأنعام، وذلك لأن الأنعام باقية على فطرتها التعبدية، ولم تنسلخ عنها كحال هؤلاء الجاحدين، كما سيأتي في الكلام عن مَثل التشبيه بالأنعام[1]، وهو سبك بلغ الغاية في الإحكام.

الهدايات:

- قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]: فيه: بيان شناعة من عرف الحق ثم تنكره، فهو كمن ينسلخ من جلده، لذلك توعد الله تعالى من جحد الحق بعد معرفته في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

- قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف:١٧٥]: فيه: تربص الشيطان بالإنسان، ومسارعته في إغوائه، وعدم يئسه من إضلاله، كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِمَآ

(١) سيذكر هنا في سورة الأعراف، وكذلك في سورة الفرقان، لكن سنتناوله في سورة الفرقان؛ للتنويع بين السور، فلم يوجد مثل في الفرقان إلا هذا المثل.

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

- قوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا﴾ [الأعراف:١٧٦]: فيه: أن الهدى والضلال بمشيئة الله تعالى، وأن ذلك لا ينافي إثبات قدرة العبد ومشيئته، لذلك أثبتها الله تعالى له في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

- قوله: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٦]: فيه: أن الرفعة في الدنيا والآخرة هي باتباع وحي الله تعالى، لذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠]، أي فيه رفعتكم وعزكم وشرفكم[١].

- قوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٦]: «فسروا الأرض في هذه الآية بالدنيا؛ وذلك لأن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والضياع، وسائر أمتعتها من المعادن والنبات والحيوان: مستخرج من الأرض، وإنما يقوى ويكمل بها، فالدنيا كلها هي الأرض، فصح أن يعبر عن الدنيا بالأرض»[٢].

- وفيه: ركون هذه المنسلخ إلى سفاسف الأمور، ونزوله إلى الأرض، بدل ارتفاعه عنها بما جاءه من الوحي، الذي يرفعه إلى معالي الأمور.

- ووجوه الشبه بين ذاك المنسلخ والكلب بديعة وظاهرة، منها:

- أن ذاك إنما انسلخ من آيات الله تعالى، واتبع هواه؛ إيثارًا للدنيا على الآخرة، فهو في لهف وهلع عليها، وهذا نظير لهث الكلب في جميع أحواله.

- وفيه: مشابهة له في حرصه وشرهه، فلذلك أخلد إلى الأرض، وركن إليها، وتعلق بها، «وهذا أغرب ما يمكن أن يتصوره الإنسان من بشر يرتضون

(١) ينظر: تفسير الطبري: (١٨/ ٤١٦).
(٢) تفسير الرازي: (١٥/ ٤٠٥).

أن يهبطوا من شاهق الإنسانية، إلى مرتبة الحيوان الذميم»[١].

- وكذاك: فإن هذا الكلب لا يمشي إلا وأنفه وفمه إلى الأرض؛ يتشممها شرهًا، وإذا رميته بحجر رجع إليه؛ يتشممه نهمًا.

- وهو كذلك: من أهون الحيوانات إلى من يطعمه، ومن أخسها نفسًا، لا تتعدى همته بطنه، وهكذا من آثر الحياة الدنيا يبقى ذليلًا لأسبابها، مفتقرًا لأربابها، منطرحًا عند أبوابها، خائفًا هلعًا على فواتها، إن فتحت عليه: كان حريصًا منوعًا، وإذا ضاقت عليه: كان يائسًا جزوعًا، كما أن الكلب في لهث عند جوعه أو شبعه، وعطشه أوريه، وإعيائه أو راحته، وعند الحمل عليه وزجره أو تركه، قائمًا أو قاعدًا، ماشيًا أو واقفًا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦].

- في قوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ..﴾: أن ذكر القصص وضرب الأمثال: من أنفع الوسائل لدعوة الناس، وتحريك فكرهم، والتأثير في قلوبهم.

(١) الأمثال والمثل والتمثيل والمثلات في القرآن الكريم، لسميح عاطف ص(٤٣٠).

المثل التاسع عشر: كأنّما يساقون إلى الموت

سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦].

المعنى الإجمالي:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: أي يكررون ذلك؛ إرادة أن يفتلوك عن اللقاء للجيش إلى الرجوع عنه.

ولما كان الجيش أمرًا قد حتمه الله تعالى فلا بد من وقوعه، قال: ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ أي الذي هو إيثار الجهاد ﴿بَعۡدَ مَا﴾ أي وضح وضوحًا عظيمًا سهلًا، من غير كلفة نظر بقرائن الأحوال، بفوات العير، وتيسير أمر النفير، وبإعلام الرسول ﷺ لهم تارة صريحًا وتارة تلويحًا.

ولما كان سبحانه قد حكم باللقاء والنصرة تأييدًا لوليه، وإعلاء لكلمته، مع شدة كراهتهم لذلك، شبه سوقه لهم إلى مراده.

فقال: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ أي يسوقهم سائق لا قدرة لهم على ممانعته ﴿إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ لأنها كانت أول غزوة غزاها النبي ﷺ وكان فيها لقاء، وكانوا غير متأهبين للقتال غاية التأهب، إنما خرجوا للقاء العير، هذا مع أنهم عدد يسير، وعدد أهل النفير كثير، وكانوا في غاية الهيبة للقائهم، والرعب من قتالهم، وكل هذا تذكير لهم بأنه لم ينصرهم إلا الله تعالى، بلا صنع منهم،

بل كانوا في يد قدرته كالآلة في يد أحدهم، لينتج ذلك أنه ليس لهم أن ينازعوا في الأنفال[١].

المناسبات:

ذكر الله تعالى حال المؤمنين قبل ذلك، وما هم عليه من جلائل الخصال، ثم بين كراهيتهم للقتال في بدر لأول وهلة، وذلك لعدم استعدادهم، ومباغتتهم، فجاء هذا المثل لبين حالهم في بداية الأمر، ثم تأتي الآيات بعده في بيان حالهم من الاستغاثة بالله تعالى، والتوكل عليه، وجوانب من النصرة، والتأييد من الله تعالى، حتى كان الفرقان بين الإيمان والكفران.

الهدايات:

- سر هذا التشبيه أنهم لقلة عددهم، وعدتهم، وعدم تأهبهم، وكثرة عدوهم كأنهم يدفعون إلى حتفهم ويساقون إلى موتهم.

- وقال: ﴿يُسَاقُونَ﴾: في البناء على ما لم يسم فاعله؛ لأن المكروه إليهم السوق لا كونه من الله تعالى، ولأنه جاءهم ممن لا يقدرون على مخالفته.

- عذرهم في كراهتهم لذلك؛ فهو إما لنفرة الطبع، أو لأنهم لم يستنفروا، أو العدول من العير إلى النفير لما في ذلك من قوة أخذ الأموال، ولما في هذا من القتل والقتال، أو لترك مكة وديارهم وأموالهم[٢].

- تقرير القاعدة القرآنية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦]، وهي قاعدة ربانية يصدقها الواقع، فكم من نقمة أثمرت نعمة، وكم من محنة تضمنت منحة.

---

(١) نظم الدرر: (٨/ ٢٢٤)، بتصرف.
(٢) البحر المحيط: (٥/ ٢٧٦).

- بيان ضعف الإنسان ورغبته في كل مالا كلفة فيه، ولا مشقة.

- كراهة الموت لا تنافي الإيمان، كما في الحديث القدسي: «**وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته**»(١).

- فضل الصحابة، وأفضلهم أهل بدر الذين سارعوا إلى أمر الله تعالى، مع شدته على نفوسهم؛ ولذلك استحقوا تزكية عظيمة، حيث قال ﷺ: «**لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**»(٢).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

المثل العشرون: والله متمّ نوره

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

المعنى الإجمالي:

أي يريدون أن يبطلوا دين الله تعالى بألسنتهم، وتكذيبهم إياه، ويأبى الله تعالى إلا أن يعلي دينه، ويظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به محمدا ﷺ(١).

قال الزمخشري: «مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، -يريد الله أن يزيده، ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة-؛ ليطفئه بنفخه، ويطمسه»(٢).

وقد ذكر سبحانه هذ المثل هنا، وكذلك ذكره في سورة الصف، في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨].

المناسبات:

لما أظهر الله تعالى مقالات اليهود والنصارى، وتبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، وافتراء افتروه: أخبر أنهم إنما يريدون الصد عن سبيله، وإطفاء نوره.

---

(١) تفسير البغوي: (٢/ ٣٤٠).

(٢) الكشاف: (٣/ ٢٦٥).

ثم بين في الآية بعدها هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه، وحفظه فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمدا ﷺ مشتملًا على بيان الحق من الباطل، في الاعتقادات والأقوال، والأعمال[1].

الهدايات:

- فيه: دلالة على « الأفعال القبيحة الصادرة عن رؤساء اليهود والنصارى، وهو سعيهم في إبطال أمر محمد ﷺ، وجدهم في إخفاء الدلائل الدالة على صحة شرعه وقوة دينه»[2].

- فيه: بيان سعي أعداء الرسل في الصد عن سبيل الله تعالى، بمقالاتهم الباطلة، وشبهاتهم العاطلة، ومكرهم الكبار، بالليل والنهار.

- قوله: ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾: فيه دلالة على وضوح دينه، وظهوره، قال القرطبي: «أي دلالته وحججه على توحيده، جعل البراهين بمنزلة النور لما فيها من البيان»[3].

- قال ابن عاشور: «وإضافة النور إلى اسم الجلالة: إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم»[4].

- في قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: قال ابن عطية: «عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها، أخبر عنهم أنهم يحاولون مقاومة أمر جسيم بسعي ضعيف، فكان الإطفاء

---

(١) تفسير السعدي: (٣٣٥)، بتصرف.
(٢) تفسير الرازي: (١٦/ ٣٢).
(٣) تفسير القرطبي: (٨/ ١٢١).
(٤) التحرير والتنوير: (١٠/ ١٧٣).

بنفخ الأفواه»[١].

- وكذلك: يفيد: أنه لا أثر له؛ فهو مجرد قول بالفم، لا بيانَ فيه، ولا برهانَ، ولا تحته معنى صحيح[٢]، كما سبق في الآيات قبلها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة:٣٠].

- فيه: أن الله تعالى يتولى أمرهم، ويبطل مكرهم، وأن سعيهم في تباب، وكيدهم إلى خراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥-١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٦]، فحالهم كمن يريد إبطال نور الشمس بنفخه فيها، بل فعلهم أعظم بطلانًا، وعملهم أشد ضياعًا.

- قوله: ﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾: «أي لا يقتصر على مجرد إشراقه، بل وعد -وقوله الحق- بأنه لا بد من إكماله، وإطفائه لكل ما عداه وإحراقه»[٣].

- فيه: التبشير بالتمكين لهذا الدين، مهما حاول الأعداء إضعافه، كما قال ﷺ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر**»[٤].

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٦).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي: (٢/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر: (٨/ ٤٤٣).

(٤) رواه أحمد: (٤/ ١٠٣)، وقال الهيثمي في المجمع: (٦/ ١٤): رجال أحمد رجال الصحيح . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٣).

- تضمن هذا المثل غاية البلاغة والبيان؛ حيث تركب من ثلاثة أمثال بديعة، قال ابن عاشور: «ومن كمال بلاغته: أنه صالح لتفكيك التشبيه:

بأن يشبه الإسلام وحده بالنور.

ويشبه محاولو إبطاله بمريدي إطفاء النور.

ويشبه الإرجاف والتكذيب بالنفخ.

ومن الرشاقة أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة، وهي الأفواه»[1].

(١) التحرير والتنوير: (١٠/ ١٧١).

المثل الحادي والعشرون: أسس بنيانه

سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٠٩].

المعنى الإجمالي:

شبَّه الله تعالى بنيان أصحاب الضرار بمن بنى بنيانا على جانب الوادي، ونحوه الذي يحفر أصله بما يجرفه السيل، «هار»: أي ضعيف متصدع متداع للسقوط، فكما أنّ من بنى على جانب هذا السيل فإنّه ينهار بناؤه في الماء، ولا يثبت، فكذلك بناء هؤلاء ينهار ويسقط في نار جهنم، فالآية تدلّ على أنّه لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق، فإنّ عمل المؤمن المتقي ثابت مستقيم، مبني على أصل صحيح ثابت، وعمل المنافق ليس بثابت، وهو واهٍ ساقط(١).

المناسبات:

وجه المناسبة ظاهر في هذا المثل لما قبله وما بعده؛ فقد جاء في سياق بيان مساجد التقوى ومساجد الضرار، بعد أن كشف سرهم، وهتك سترهم، وحذر من فعلهم، جاء هذا المثل لبين حال الفريقين في بنائهم الذي هو فرع عما استقر في قلوبهم من التقوى أو النفاق.

---

(١) مجمع البيان: (٣/ ٧٣).

الهدايات:

- قوله: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٩]: «للخوف من عقاب الله، والرغبة في ثوابه؛ وذلك لأن الطاعة لا تكون طاعة إلا عند هذه الرهبة والرغبة، وحاصل الكلام أن الباني لما بنى ذلك البناء لوجه الله تعالى، وللرهبة من عقابه، والرغبة في ثوابه، كان ذلك البناء أفضل وأكمل من البناء الذي بناه الباني لداعية الكفر بالله، والإضرار بعباد الله»(١).

- لما اتخذ هؤلاء المنافقون هذا المسجد إضرارًا بالمؤمنين، واجتماعًا وتآمرًا عليهم: كان بنيانًا ضعيفًا متهالكًا، نهايته السقوط، وعاقبته الدمار؛ فإن الإسلام باق، ولا يمكن لبناء أسس لهدمه أن يستقر، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

- **وفيه**: «أن الإيمان الصادق، وما يتبعه من العمل المثمر النافع كالبناء المتين المؤسس، الذي يقي صاحبه عوادي الزمان.

وأن النفاق وما يستلزم من العمل الفاسد هو الباطل الزاهق، وهو كالبناء الذي يبنى على الجرف المنهار، لا ينفع صاحبه، ولا يقيه سوء، بل يضره ضررًا بليغًا؛ حيث ألهاه عن العمل المثمر النافع»(٢).

- **وفيه**: أن كل عمل بني على الإيمان، وإن كان قليلا فهو قوي ثابت، وكل عمل بني على النفاق، وإن كان كبيرًا، فهو ضعيف ذاهب.

---

(١) تفسير الرازي: (١٦/ ١٤٩).

(٢) التفسير الواضح: (٢/ ١٨).

- **وفي هذا المثل**: بيان لتنوع صور كيد المنافقين، فهنا بنوا مسجدًا، وهو من جلائل الأعمال، ولكنهم اتخذوه لأبشع الأفعال، وهو التآمر على النبي ﷺ وأصحابه، فالعبرة ليست بالعمل وحده، وإنما بالمقصود منه، والنية فيه.

- **وفيه**: أن الأعداء قد يتظاهرون بالسلام، والقيام بمصالح المسلمين، فيغتر بهم بعض لا يعرف حقيقة أمرهم، ومآمراتهم.

- **وفيه**: أنه لا يعرف سبيل المجرمين على وجه التمام إلا من فهم الوحي، وسار على نهجه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

المثل الثاني والعشرون: حقيقة الحياة الدنيا

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

المعنى الإجمالي:

ضرب الله تعالى مثلًا للحياة الدنيا وزهرتها، وتزينها في أعين ناظرها، واغترارهم بها، ثم سرعة انقضائها، وزوالها وفنائها، وسلبها منهم بغتة بنبات الأرض مما يأكله الناس والأنعام، -والذي أخرجه الله- بماء أنزله من السماء.

حتى إذا تزخرفت الأرض بأصنافها الزاهية، وازينت بأنواعها المختلفة، وظن أصحابها أنهم قادرون على جذاذها وحصادها: أتاها أمر الله من صاعقة، أو ريح، أو آفة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها، كأنها لم تكن شيئا بالأمس.

وهكذا شأن الدنيا تمر ساعاتها سراعًا، وتنقضي أوقاتها تباعا، مهما بلغت زخارفها فهي إلى زوال، وأما الجنة فهي السليمة من الآفات الدائمة في النعيم والخيرات؛ لذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونيس:٢٥]، فهي دار السلام؛ لسلامتها من تلك المنغصات والمكدرات(١)، كما قال ﷺ:

(١) ينظر: التفسير القيم لابن القيم: (١/ ٣١٧).

«**يؤتى بأنعم أهل الدنيا: فيغمس في النار غمسة، فيقال: هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا: فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا**»(١).

وقد ضرب الله هذا المثل في ثلاث آيات أخرى ستأتي في مواضعها.

المناسبات:

بعد ذكر بغي الذين كفروا؛ ايثارًا للحياة الدنيا، بين لهم هنا أن متاع الدنيا قليل، وأنه مهما تزين للناس فمآله إلى الفناء، قال الرازي: «في هذا المثل البديع مناسبة لما سبقه؛ فإنه سبحانه لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: ٢٣]: أتبعه بهذا المثل العجيب، الذي ضربه لمن يبغي في الأرض، ويغتر بالدنيا، ويشتد تمسكه بها، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة، والتأهب لها»(٢).

ووجه آخر: وهو أنه «لما كان السياق لإثبات البعث، وتخويفهم به، وكانوا ينكرونه، ويعتقدون بقاء الدنيا، وأنها إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلغ، دائمًا بلا انقضاء، فهي دار يرضى بها، فيطمئن إليها، وللتنفير من البغي، والتعزز بغير الحق، وكانت الأمثال أجلى لمحال الأشكال: قال تعالى؛ ممثلًا لمتاعها قاصرًا أمرها على الفناء، ردًا عليهم في اعتقاد دوامها من غير بعث»(٣).

ثم رغب بعد ذلك في دار السلامة من الآفات والفناء، كما سبق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسا في الجنة، رقم (٢٨٠٧).

(٢) تفسير الرازي: (١٧/ ٢٣٦).

(٣) نظم الدرر: (٩/ ١٠١).

الهدايات:

- أن عاقبة هذه الحياة الدنيا: كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به، وقع اليأس منه؛ لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه، وعظمت رغبته فيها: يأتيه الموت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

- قال أبو حيان: «﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس:٢٤]: جملة بديعة اللفظ، جعلت الأرض آخذة زخرفها متزينة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتست وتزينت بأنواع الحلي، فاستعير الأخذ، وهو التناول باليد؛ لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة، وأثواب مختلفة، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة الزخرف، وهو الذهب، لما كان من الأشياء البهجة المنظر، السارة للنفوس»(١).

- «حسن الاستعارة في أخذ الأرض زينتها، حتى كان استكمال جمالها، كأنه فعل عاقل، حريص على منتهى الإبداع والإتقان فيها، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل:٨٨] »(٢).

- في التشبيه: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها: لا تحصل له عاقبة تحمد.

- **وجه ثالث**: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]: فلما صار سعي هذا الزراع باطلا بسبب حدوث الأسباب المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

---

(١) البحر المحيط: (٦/ ٣٨).

(٢) تفسير المنار: (١١/ ٢٨٤).

- ووجه رابع: أن مالك ذلك البستان لما عمره بإتعاب النفس، وكد الروح، وعلق قلبه على الانتفاع به، فإذا حدث ذلك السبب المهلك، وصار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات، فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات، وفاته كل ما نال، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

- **ووجه خامس**: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ وذلك لأنا نرى الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية، قد بلغ الغاية في الزينة والحسن، ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة، فيزول ذلك الحسن بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر هذا المثال ليدل على أن من قدر على ذلك، كان قادرا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر[١].

- «﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤] أي كهذا المثل في جلائه، وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا، وغرور الناس فيها، وسرعة زوالها، عند تعلق الآمال بنوالها، نفصل الآيات في حقائق التوحيد، وأصول التشريع، وأمثال الوعظ والتهذيب، وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم، وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم، واستعدادهم لمعادهم، لقوم يستعملون عقولهم، وأفكارهم فيها، ويزنون أعمالهم بموازينها، فيتبينون ربحها وخسرانها»[٢].

---

(١) تفسير الرازي: (١٧/ ٢٣٧).

(٢) تفسير المنار: (١١/ ٢٨٥).

المثل الثالث والعشرون: المؤمن والكافر

سورة هود

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤].

المعنى الإجمالي:

هنا يضرب الله تعالى مثلا للكافر بالأعمى والأصم، والمؤمن بالسميع والبصير، وقد بين الله تعالى في آيات سابقة أن الكفار لا يسمعون الحق سماع إجابة، ولا تبصره قلوبهم، فقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠].

وأما المؤمنون فوصفهم في الآية قبلها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود:٢٣] فلا يمكن استواؤهم بحال؛ لذلك قال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٤] وهو استفهام يتضمن الإنكار على من يسوي بين الحق والباطل.

المناسبات:

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة محكمة، فقد بين سبحانه حال المعرضين والمؤمنين، ثم شبه كل حال بما يناسبه من وصف، ولذلك جاءت الآيات بعدها بذكر قصص الأنبياء وأحوال المؤمنين والمعرضين، وهو تفصيل واقعي لوصفي العمى والبصر، والسمع والصمم، فكانت الآيات متناسقة في تحقيق

هذا المقصد، وهو بيان الطريقين، والدعوة لأهدى السبيلين.

الهدايات:

- وجه الشبه بين الكافر والأعمى والأصم ظاهر؛ فإن الأصم لا يسمع ما ينفعه، والأعمى لا يبصر ما يفيده، وكذلك بين المؤمن والمبصر والسميع.

- فهؤلاء أبصرت قلوبهم حقيقة الإيمان فاطمأنت به، وسمعت آذانهم الحق فاستجابت له، فجمعوا بين هداية الباطن والظاهر، وأولئك جمعوا بين ضلال الباطن والظاهر.

وقد ضرب الله مثل الكافر بالأعمى والأصم في آيات كثيرة فقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال في سورة الفرقان: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وقال في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

- فيها: أن حقيقة البصيرة في القلب؛ لذلك كانت حقيقة العمى في القلب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

- فيها: أن من أعظم أسباب الهداية سماعَ الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، وقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، ولذلك يعتبر الأصم الذي لم يسمع الرسالة من أهل الفترة؛ كما قال ﷺ: «**أربعة يحتجون على الله يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرِم، ورجل مات في فترة**»(١).

(١) رواه أحمد (١٥٨٦٦)، وابن حبان (١٨٢٧) والطبراني في (الكبير) (٨٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (١٤٣٤)، وصحيح الجامع، رقم (٨٨١).

المثل الرابع والعشرون: دعْوة الحقّ

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

المعنى الإجمالي:

يبين الله تعالى أنه سبحانه له دعوة الحق، وهي التوحيد، ومثل الذين يدعون من دونه كالذي يبسط يده إلى الماء، يدعوه بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه، ولا يصل إلى فيه، فهو لا ينتفع به، ويبقى متطلعا إليه، متعلقا به.

قال أبو حيان: «**شبه الكفار في دعائهم لأصنامهم عند ضرورتهم برجل عطشان، لا يقدر على الماء، جلس على شفير بئر، يدعو الماء ليبل غلته، فلا هو يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا الماء يرتفع إليه؛ لأنه جماد، ولا يحس بعطشه ودعائه.**

كذلك ما يدعو الكفار من الأوثان، جماد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم»[(١)].

المناسبات:

ذكر الله تعالى قبل هذا المثل صفات ربوبيته، من علم الغيوب في الكون، والأجنة، وخواطر النفوس، وتقدير الأمور، ومعرفة الكائنات لعظمته،

(١) البحر المحيط: (٦/ ٣٦٨).

وتسبيحهم بحمده.

ثم بين هنا أن هذا الرب العظيم هو المستحق للعبودية، والدعاء بحق، دون غيره، ولذلك أعقب هذا المثل ببيان أن من في السموات والأرض تسجد لله تعالى، وتتعبد له بفطرتها، لم يند عن ذلك إلا شياطين الجن والإنس.

الهدايات:

- في هذا التشبيه أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء لا يفيده بسطه، ولا يصل به إلى فمه، وكذلك الذي يدعو من دون الله بلسانه، ويمد إليه يديه، ويتقرب إليه بقلبه وجوارحه، ولا يصل إليه منه شيء، فلا ينتفع منه في شيء، بل ولا يضره بشيء إلا بإذن الله؛ لذلك قال في آية بعدها: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦]، فهذا الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرًا، هو أعجز من أن يملك لغيره شيئا، لذلك قال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

- وإنما ضرب الله عَزَّوَجَلَّ الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد، كما قال الشاعر:

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد(١)

- فالله تعالى وحده هو المستحق للعبادة وإخلاص الدعاء بنوعيه دعاء العبادة ودعاء المسألة، مع الإنابة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

---

(١) تفسير القرطبي: (٩/ ٣٠٠).

– فهذا المثل من أحسن الأمثلة؛ فإنه تشبيه بأمر محال وهو بلوغ الماء إلى فيه، وكذلك المشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ الأدلة على نفي الشيء وامتناعه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

– وختم هذا المثل بقوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤]: كما قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

المثل الخامس والعشرون: أودية الإيمان

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

المعنى الإجمالي:

هنا أيضا ضرب لمثلين: مائي وناري، كما سبق في أول أمثال القرآن في سورة البقرة، ولكن المثلين السابقين للمنافقين، وهذان المثلان للمؤمنين، قال الماوردي: (هذا مثل شاق صعب المسلك والمخرج؛ لغموضه؛ لأنه أمثال متداخلة، بعضها في بعض)[1]؛ لذلك لابد من تفصيله كما يلي:

- **أولًا: المثل المائي**: حيث شبه الله تعالى الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأبدان، بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب التي تستقبل الوحي بالأودية التي تسيل بالمياه بقدرها اتساعا وضيقًا، فقلب كبير يسع علما عظيمًا كواد كبير يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع كما يسع الوادي الصغير.

ثم تلك الأودية والسيول تحمل معها الغثاء والزبد لتطرحه وتفرقه، ويبقى الماء الصافي النقي الذي يسقى منه الناس، ويزرعون منه، ويسقون أنعامهم: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

---

(١) الأمثال للماوردي ص (١٩٤)، ينظر: إعلام الموقعين: (٢/ ٢٧٣).

- **ثانيًا: المثل الناري**: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخبث الذي يخرج من الذهب والفضة عند سبكها وإذابتها؛ ليجعل حلية أو متاعا ينتفع به كالحديد والنحاس ونحوه، فتخرجه النار، وتميزه، وتفصله عن الجوهر، فيرمى ويذهب جفاء أي متفرقا، ويبقى المعدن أو الجوهر صافيا خالصا.

المناسبات:

بين الله تعالى في الآيات السابقة للمثل دلائل ربوبيته، وأن ذلك يستلزم ألوهيته، وعبادته وحده دون من سواه، ثم تحدى أولئك المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء، فأظهر عجزهم، وعدم قدرتهم على خلق شيء، وجلى قهره عليهم، ثم أراد في هذه الأمثال أن يبين حقيقة التوحيد، ومعالم الإيمان.

ثم أعقب المثل ببيان عاقبة المؤمنين المستجبين لربهم، وعاقبة المستكبرين عن أمره، فقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد:١٨].

الهدايات:

- فيها: أن الوحي والهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها، ويبقى القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس، كالأودية التي تسيل بالمياه، والحلية والمتاع التي تصيغها النار.

- فيها: أن قلب المؤمن يطرح الشهوات والشبهات، ويجاهد نفسه في إذهابها؛ ليبقى نقيًا ليس فيه إلا الحق، الذي يمحق الباطل: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد:١٧]، كتلك النار التي تصفي المعدن.

- فيها: «أن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه، فكذا هاهنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب، من طهارته وخبثه، وقوة فهمه وقصور فهمه»(١).

- وقد ضرب النبي ﷺ مثلا لذلك فقال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا:

فكانت منها طائفة طيبة: قبلتِ الماء، فأنبتتِ الكلأ والعشْب الكثير. وكانت منها أجادِب، أمسكت الماء: فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا.

وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقِه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعلم، ومثل من لم يرفعْ بذلك رأْسا، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به»(٢).

- قال البقاعي: «﴿أَنزَلَ﴾ [الرعد:١٧]: ولما كان الإنزال قد يتجوز به عن إيجاد ما يعظم إيجاده، حقق أمره بقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الرعد:١٧].

ولما كان المنزل منها أنواعًا شتى: قال: ﴿مَآءً فَسَالَتْ﴾ [الرعد:١٧]: أي فتسبب عن إنزاله؛ لكثرته أن سالت أودية»(٣).

- في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ [الرعد:١٧]: يعم المعادن كالذهب والفضة والحديد

---

(١) تفسير الرازي: (١٩/ ٢٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) نظم الدرر: (١٠/ ٣١٤).

والنحاس ونحوها، التي تستخدم حلية أو متاعًا كالأواني والآلات، ولم يسمها على وجه التهاون بها؛ إظهارًا لكبريائه سبحانه[١]، أو للامتنان بكثرتها وتنوعها.

- فتدبر هذين المثلين؛ لتتبين لك بلاغة القرآن، وروعة الإعجاز، مع براعة الإيجاز؛ لذلك قال في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

(١) تفسير البيضاوي: (٣/ ١٨٥).

المثل السادس والعشرون: عظمة القرآن

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ [الرعد:٣١].

المعنى الإجمالي:

هذه الآية تفسر على معنيين ظاهرين:

المعنى الأول: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال عن مواضعها، وزعزعت عن مضاجعها، أو قطعت به الأرض؛ حتى تتصدع، وتصبح قطعا، أو كلم به الموتى فتسمع وتجيب: لكان هذا القرآن؛ لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار، والتخويف، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر:٢١].

قال ابن عطية: «وتتضمن الآية -على هذا- تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرز فصاحة الآية»(١).

المعنى الثاني: ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وتكليم الموتى، وتنبيههم، لما آمنوا به، ولما تنبهوا عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٣١٣).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١][(١)].

ويدل على هذا المعنى قول مجاهد أن سبب نزولها: «قول كفار قريش لمحمد ﷺ: سير جبالنا؛ تتسع لنا أرضنا؛ فإنها ضيقة، أو قرب لنا الشأم؛ فإنا نتجر بها، أو أخرج لنا آباءنا من القبور؛ نكلمهم!»[(٢)].

وإنما تصلح مثلًا على المعنى الأول؛ ولذلك أوردتها هنا؛ لاحتمالها للمعنيين.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]: «فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟»[(٣)].

المناسبات:

«لما فرغ من الجواب عن الكفر بالموحى، عطف على «**هو ربي**» الجواب عن الكفر بالوحي، فقال: ﴿وَلَوۡ﴾ إشارة إلى أنه يعتقد في القرآن ما هو أهله، بعد ما أخبر عن اعتقاده في الرحمن، أي وقل: لو ﴿أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ كانت به الآيات المحسوسات بأن ﴿سُيِّرَتۡ﴾ أي بأدنى إشارة من مشير ما ﴿بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي فأذهبت على ثقلها وصلابتها، عن وجه الأرض ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾ أي كذلك ﴿بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي على كثافتها فشققت، فتفجرت منها الأنهار ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فسمعت، وأجابت: لكان هذا القرآن؛ لأنه آية لا مثل لها، فكيف يطلبون آية

---

(١) الكشاف: (٢/ ٥٢٩).

(٢) رواه ابن جرير(٢٠٤٠٠)، وإسناده صحيح، كما في التفسير الصحيح: (٣/ ١١٩)، وثبت نحوه عن قتادة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) تفسير السعدي (٤١٨).

غيره!»[١].

لذلك قال بعدها: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾: «فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعا، ولكنه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء»[٢].

الهدايات:

- **فيها**: دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، فالذي أوجد كل شيء من العدم، وأودع فيه عجائب النعم: قادر على إظهار هذه الآيات، كما وقع ما هو أعظم منها.

- **فيها**: بيان حكمة الله تعالى؛ حيث لم ينزل المعجزات العيانية المتتابعة؛ ليتفكر الناس بعقولهم، ويتدبروا بقلوبهم، ويرجعوا إلى فطرهم.

- **فيها**: عظمة هذا القرآن الذي تتأثر له الجمادات، وتخضع له الكائنات، وأن معجزته ليس متوقفة على أثره على الجماد فحسب، وإنما على حججه وبراهينه، ونظمه وبلاغته وترتيله، وتشريعاته وعلومه، وغيرها من جوانب إعجازه.

- **فيها**: رحمة الله تعالى بخلقه؛ حيث لم يحقق لهم مطلوبهم، ويعجل عليهم عقوبتهم؛ ولذلك لما سأل بنو إسرائيل أن تنزل عليهم مائدة من السماء: قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥].

---

(١) نظم الدرر: (١٠/ ٣٤٠).

(٢) تفسير السعدي (٤١٨).

وكذلك لما قالت قريش للنبي ﷺ:

«ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبا، فإن أصبحت ذهبا اتبعناك، وعرفنا أن ما قلت كما قلت».

فسأل ربه عَزَّوَجَلَّ، فأتاه جبريل، فقال: إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك: عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت: فتحنا لهم أبواب التوبة.

قال: «**يا رب لا، بل افتح لهم أبواب التوبة**»[1].

---

(١) رواه أحمد: (١/ ٣٤٥)، والطبراني في معجمه الكبير: (١٢/ ١٥٢)، رقم (١٢٧٣٦)، والحاكم في المستدرك: (١/ ٥٣)، (٢/ ٣١٤)، (٤/ ٢٤٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والألباني في السلسلة الصحيحة، رقم (٣٣٨٨).

المثل السابع والعشرون: أعمال الكافرين

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

المعنى الإجمالي:

يشبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها، وعدم انتفاعهم بها في الآخرة، بالرماد المنثور، إذا اشتدت به الريح، في يوم عاصفة قوية، وهكذا أعمال هؤلاء الكفار، لم تقم على الإيمان، فيكون يوم القيامة هباء منثورًا، لا يقدرون على الانتفاع بثواب أعمالهم، كما لا يقدرون على جمع ذلك الرماد المتطاير، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

المناسبات:

هذا المثل سُبق بذكر أحوال الكفار مع رسلهم، وتكذيبهم لهم، وإخراجهم من أرضهم، وادعاء أن ما هم عليه من اتباع الآباء هو الحق، ثم توعدهم الله تعالى بما سيصيبهم في الآخرة من العذاب والنكال، فناسب ذكر هذا المثل لبيان أن أعمالهم لن تفيدهم.

ثم أعقبه ببيان أن المستحق للألوهية هو الذي بيده الأمر كله قبلًا بالخلق والتقدير والتدبير، وبعدًا بالبعث والحشر.

الهدايات:

- أن أعمال الكفار كالرماد، وهو لا شك يتطاير ويتناثر؛ لأنه لا يثبت في

الأرض، وليس له أساس يعتمد عليه، ويزداد تطايره مع شدة الريح في يوم عاصف، فلا يتمكنون من الانتفاع بشيء من أعمالهم في الآخرة.

- و«وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال: هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه، بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا هاهنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها، بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر»(١).

- وتشبيه أعمال الكفار بالرماد فيه سر آخر: وهو أن النار هي التي أحرقت مادة الرماد، وأذهبت أصله، كما أن نار جهنم ستحرق الكفار وتذهب بأعمالهم، ويكونون وقودًا لها، هم وما يعبدون من دون الله سبحانه.

- لذلك قال تعالى في ختام الآية ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨] فبدلا من أن تكون الأعمال قربة لهم إلى الله كانت سببًا لعذابهم، وحطبًا لنيرانهم، فهذا غاية الضلال وسوء المآل.

- قوله: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾: فيه دلالة على أن أعمالهم من كسبهم، وهم مختارون لها، فاعلون لها حقيقة، فلم يظلمهم الله تعالى، ولكن ظلموا أنفسهم بسوء أعمالهم.

- قوله: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [إبراهيم :١٨]: دلالة على فقدهم لكل شيء ظنوا منفعته، وأنهم لا يستفيدون من أي شيء، وهذه غاية الخسران؛ لذلك ختمها سبحانه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨]: لكون أكبر الضلال ألا تجد شيئًا من أثر أعمال سنوات طويلة قضيتها.

---

(١) تفسير الرازي: (١٩/ ٨١).

المثل الثامن والعشرون: الكلمة الطيبة

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [ابراهيم:٢٤-٢٥].

المعنى الإجمالي:

هنا يضرب الله تعالى هذا المثل العظيم لكلمة التوحيد، بالشجرة الطيبة، التي تضرب بجذورها الأرض، وتثبت فيها، وتمتد بأغصانها إلى السماء، تؤتي أكلها، وتثمر ثمارها كل حين، وينتفع الناس بخيراتها ممسين ومصبحين.

وهكذا كلمة التوحيد، وشهادة الحق، إذا تمكنت في القلب، وثبتت فيه، وتغلغلت في سويدائه، وأخلص لها صاحبها، وعرف حقيقتها، وقام بحقها، أثمرت ثمارها اليانعة، وظهرت أنوارها الساطعة، فانعكست على الجوارح أعمالا صالحة، وأقوالا طيبة نافعة، ترتفع إلى السماء وتصعد إلى الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

المناسبات:

«لما تقرر بما مضى أن الحق ما قاله الله أو فعله أو أذن فيه، وأن الباطل ما كان على غير أمره مما ينسب إلى الشيطان، أو غيره من قول أو فعل، وأنه لا يصلح في الحكمة أن ينفي الحق، ولا أن يبقى الباطل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يونس: ٨٢]، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]، وقص سبحانه كلام أوليائه الذي هو من كلامه، فهو أثبت الأشياء، وأطيبها، وأعظمها ثمرة، وكلام أعدائه الذي هو من كلام الشيطان، فهو أبطل الأشياء، وأخبثها، قرب سبحانه ذلك بمثل يتعارفه المخاطبون»(١).

الهدايات:

- في هذا التمثيل البديع، وهذا الوصف البليغ: قد يكون المثل المضروب للإيمان أو للمؤمن نفسه، فعمله في الأرض، ويصعد إلى السماء، ويؤتى أثره من الخير كل حين ليلًا ونهارًا، في جميع أيامه بتوفيق من الله، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال ﷺ: «**إن من الشجر لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم**»(٢)، وهي النخلة.

وكلا المعنيين صحيح؛ فإن تلك الكلمة الطيبة إنما تقوم أصولها في قلب المؤمن، وتظهر فروعها عليه في الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة.

- **وفيه**: رسوخ إيمان هذا المؤمن وثباته، مهما تقلبت به الأحوال، فهو بقوة يقينه كتلك النخلة التي لا تتجارى بها الأهواء، ولا تعصف بها الرياح.

- **وفيه**: كثرة منافع هذا الإيمان، وأثره على صاحبه، وعلى غيره، كمنافع تلك النخلة التي يستفاد من شجرها، وثمرها، وجذعها، وورقها، وسعفها، وليفها في حياة الناس، ومختلف حاجاتهم.

---

(١) نظم الدرر: (١٠/ ٤١١).

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا، رقم (٦١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة، رقم (٢٨١١).

- إذا كان الإيمان كالشجرة في قلب المؤمن كان لا بد من تعاهدها بما يسقيها، وينميها، من العلم النافع، والعمل الصالح، والتفكر والتذكر، وإلا يبست أوراقها، ولم تنضج ثمارها، كما قال النبي ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

- وكان كذلك لا بد من تنقية هذه الشجرة مما يخالطها من الآفات، ولهذا لا بد من تعاهد الباطن والظاهر، والتخلص من ذميم الخصال، وسيء الأقوال والأفعال، وهذا كله من أوجه الشبه الدقيقة بين الشجرة والمؤمن، لذلك ختمه بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥].

(١) أخرجه الحاكم: (١/ ٤)، وقال: «رواته مصريون ثقات». ووافقه الذهبي.
ورواه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد: (١/ ٥٢)، وقال الهيثمي: «إسناده حسن». وصححه الألباني، كما في صحيح الجامع: (٢/ ٥٦) والسلسلة الصحيحة: (٤/ ١١٣).

المثل التاسع والعشرون: الكلمة الخبيثة

سورة إبراهيم

قوله تعالى:﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [ابراهيم: ٢٦].

المعنى الإجمالي:

هذا المثل على الضد من الذي قبله حيث يضرب الله مثلا للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الكفر والشرك، بشجرة خبيثة، ومع خبثها، ونفور الطباع عنها: اجتثت من فوق الأرض، أي: اقتلعت واستؤصلت من جذورها، فلا قرار لها: أي لا أصل لها ولا ثبات، وبالتالي لا ثمر لها؛ حيث انقطعت عنها مادة السقي، التي بها حياتها.

المناسبات:

لا زال الحديث حول بيان صدق كلام الله تعالى، والحق الذي جاءت به رسله، وهنا ذكر مقابل ذلك، وهو الكلمة الخبيثة، وبضدها تتبين الأشياء، ويتمحض الحق، وينكشف الباطل، لذلك كانت هذه المقابلة الدقيقة، بأمثال قريبة من الواقع، محسوسة بالبصر قبل البصيرة.

ولذلك ذكر بعدها آية الثبات، وأنه من عند الله تعالى، دلالة وإرشادا بهذه الآيات والأمثال، وتوفيقا وإلهامًا لمن سلك سبله، وجاهد نفسه في تحري الحق.

الهدايات:

- صورة تلك الشجرة مشابهة لصورة الكفر والشرك في قلب صاحبه، لا أصل له يمسكه ويثبته ويحييه، ولا عمل له ينتجه ويصلحه وينميه، بل يبقى كتلك الشجرة، بضعفها ووهنها، تعصف به الريح، وتنفر عنه الفطرة.

- كما أنه لا يصعد منه عمل إلى الله تعالى، كتلك الشجرة التي لا تنمو، فلا أصل له في الأرض، ولا فرع له في السماء.

- ولا يؤتي أكله؛ لانقطاع مادة الحياة، وهي الإيمان والتوحيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

- فلكل ذلك لا تصلح هذه الشجرة إلا وقودا للنار، كذلك الكافر الذي مآله إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٠].

فبالمقارنة بين المثلين، والتدبر في حال الفريقين: تتحقق الهداية لأقوم النجدين.

المثل الثلاثون: فخر عليهم السقف

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

المعنى الإجمالي:

بين الله تعالى مكر الكفار برسلهم، واحتيالهم بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به، وبنوا من مكرهم قصورًا هائلة.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾: فصار ما بنوه عذابا عذبوا به.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم، ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه(١).

وهل هو مثل مضروب، أم أن المعنى على ظاهره؟

قولان للمفسرين، ولا مانع من حمل الآية عليهما، قال ابن كثير: «وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غيره»(٢).

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ص (٤٣٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/ ٥٦٦).

وقال الرازي: «القول الأول: أن هذا محض التمثيل، والمعنى أنهم رتبوا منصوبات؛ ليمكروا بها أنبياء الله تعالى فجعل الله تعالى حالهم في تلك المنصوبات مثل حال قوم بنوا بنيانًا، وعمدوه بالأساطين؛ فانهدم ذلك البناء، وضعفت تلك الأساطين، فسقط السقف عليهم.

ونظيره قولهم: من حفر بئرًا لأخيه: أوقعه الله فيه»[١]، ورجح هذا القول.

المناسبات:

سُبق المثل بالكلام عن الاستكبار، ولما كان المراد من هذا الاستكبار محوَ الحق وإخفاءه، من غير تصريح بالعناد، بل مع إقامة شبه ربما راجت -وإن اشتد ضعفها- على عقول هي أضعف منها، وكأن هذا حقيقة المكر التي هي التغطية والستر:

شرع سبحانه يتوعد الماكرين، ويحذرهم وقوع ما وقع بمن كانوا أكثر منهم عددًا، وأقوى يدًا، ويرجّي المؤمنين في نصرهم عليهم، بما له من عظيم القوة، وشديد السطوة.

ولما كان المكر هو الضر في خفية؛ لأنه القتل بالحيلة إلى جهة منكرة، بين أن ما حصل لهم من العذاب هو من باب ما فعلوا بقوله: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: أي الذي اتفقت كلمة الرسل على الوعيد به لمن أبى، ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأن السبب الذي أعدوه لنصرهم كان بعينه سبب قهرهم، وهذا على سبيل التمثيل[٢].

---

(١) التفسير الكبير: (٢٠/ ١٩٨).

(٢) نظم الدرر: (١١/ ١٣٨)، بتصرف.

ثم بين سبحانه في الآية بعدها أنه مع ما أصابهم من العذاب فينتظرهم عذاب الآخرة، وهو أشد وأخزى.

الهدايات:

- **فيها**: بيان المكر الكبار للكفار بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:٣٣].

- **وفيها**: أن الله تعالى يمكر بالماكرين، ويزيين لهم أعمالهم، حتى إذا قوي بنيانهم، هدم قواعدهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥٠-٥١].

- **وفيها**: أن عاقبة المكر إلى الهلاك والبوار، مهما عظم شأنه، وظهرت صولته، فلا يجزع المؤمن لمكر الماكرين، ولا يخاف كيد الكائدين.

- الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]، مع أنه معلوم أن السقف يخر من فوق -كما قال الرازي-: «ربما خر السقف، ولا يكون تحته أحد، فلما قال: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]: دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها»[(١)].

(١) التفسير الكبير: (٢٠/ ١٩٩).

المثل الحادي والثلاثون: المملوك والسيد

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

المعنى الإجمالي:

ضرب الله تعالى في هذه الآية مثلًا عظيمًا للأوثان المعبودة من دونه، وله جل وعلا، وهو المعبود بحق.

حيث بين أن هذه الأوثان بمنزلة العبد المملوك؛ وذلك أنها ملك لله تعالى، عاجزة عن التصدق، لا تقدر على شيء، فكيف تجعل شريكة لله تعالى، الذي له من في السماوات والأرض، المالك لكل شيء، ينفق على عبيده كيف شاء سرا وجهرًا؟!

وهناك قول آخر، وهو: أن العبد المملوك هو الكافر، والمرزوق المنفق هو المؤمن.

لكن الأول أوضح خطابًا، وأقرب نسبًا بقوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣].

وجمع بينهما ابن القيم فقال: «ومن لوازم هذا المثل وأحكامه: أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا، والكافر المشرك كالعبد المملوك

الذي لا يقدر على شيء، فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبها على إرادته، لا أن الآية اختصت به، فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس، وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية، التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قوله»[١].

المناسبات:

لما دحض الله تعالى ما أقاموه من الشبه، وضربوه من الأمثال فيما ارتكبوه من قولهم: إن الملك لا يتوصل إليه إلا بأعوان من حاجب، ونائب ونحو ذلك، ولا يتوصل إليه إلا بأنواع القربان، فعبدوا الأصنام، وفعلوا لها ما يفعل له تشبيهًا به عز شأنه، وتعالى سلطانه؛ لأن الفرق أن ملوك الدنيا المقيس عليهم، إنما أقاموا مَن ذكر لحاجتهم، وضعف مُلكهم ومِلكهم، فحالهم مخالف لوصف من لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يشغله شأن عن شأن، وكل شيء في قبضته، وتحت قهره وعظمته، فلذلك نهاهم عن ضرب الأمثال الباطلة، في الآية السابقة لهذا المثل.

ثم بين لهم الأمثال الصحيحة في هذا المثل، والذي بعده[٢].

الهدايات:

- ضرب المثل بالعبد إشارة إلى أن هذا الإنسان هو عبد لله تعالى، حتى وإن تمرد عليه فهو تحت قهره وسلطانه، ورزقه وأقداره؛ فلذلك كل الخلق عبيد الله تعالى طوعًا أو كرهًا، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣].

---

(١) إعلام الموقعين: (١/ ١٢٤).
(٢) نظم الدرر: (١١/ ٢١٤)، بتصرف.

- **وفيها**: دلالة على أن العبد لا يملك شيئا، فهو وما عنده ملك لسيده، وهذا شأن الخلق مع ربهم، فهم وما في أيديهم من رزق كله ملك لله تعالى.

- **وفيها**: فضل الصدقة، وأنها من صفات الأحرار، الذين تحرروا من عبودية الدرهم والدينار، كما قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة[١]، تعس عبد الخميلة[٢]، إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط؛ تعس وانتكس[٣]، وإذا شيك فلا انتقش[٤]»[٥].

- **وفيها**: فضل الصدقة سرًا؛ حيث بدأ بها سبحانه، مع فضيلة الصدقة جهرًا؛ حيث مدحت هنا، وهو كقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٧١].

- في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢]: «الإحاطة بصفات الكمال للملك الأعظم، وعن نسبتهم إلى علم ذلك بقوله تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥] أي ليس لهم علم بشيء أصلًا، لأنهم يعملون في هذا بالجهل، فنسبتهم إلى الغباوة أحسن في حقهم من نسبتهم إلى الضلال على علم»[٦].

---

(١) هو ثوب خز أو صوف معلم.

(٢) القطيفة، وهي ثوب له خمل من أي شيء كان.

(٣) انتكس أي انقلب على رأسه بعد أن سقط.

(٤) أي إذا أصابته شوكة «فلا انتقش» أي فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٧).

(٦) نظم الدرر: (١١/ ٢١٧).

المثل الثاني والثلاثون: العدل والكَلّ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

المعنى الإجمالي:

«هذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده، ويشملهم من آثار رحمته، وألطافه، ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع»(١).

فضرب مثلًا للأوثان بالرجل الأبكم القلب الذي لا يعقل، والأبكم اللسان الذي لا ينطق، والعاجز الذي لا يقدر على شيء، وهو عالة على غيره، ولا يقضي لك حاجة، أينما أرسلته لا يأت بخير.

وأما هو سبحانه فهو القادر المتكلم بالحق، الآمر بالعدل، في جميع أقواله وأفعاله، القائم بالقسط في جميع أحكامه، فلا يظلم الناس شيئًا، ولا يفعل ما لا يحمد عليه، بل هو مستحق للحمد في جميع أفعاله، على صراط مستقيم، فقد جعل رسله وأتباعهم على صراط مستقيم، وهدي قويم، فهو أحق به، والداعي إليه حقيقة: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ

(١) الكشاف للزمخشري: (٢/ ٦٢٣).

لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

المناسبات:

«لما انقضى هذا المثل كافيًا في المراد، ملزمًا لهم؛ لاعترافهم بأن الأصنام عبيد الله في قولهم: «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»، وكان ربما كابر مكابر فقال: إنهم ليسوا ملكًا له: أتبعه مثلًا آخر لا تمكن المكابرة فيه... ولما تم هذان المثلان، الدالان على تمام علمه، وشمول قدرته، والقاضيان بأن غيره عدم، عطف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ [النحل:٧٤] قوله مصرحًا بتمام علمه، وشمول قدرته: ﴿وَلِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] أي هذا علم الله في المشاهدات، الذي علم من هذه الأدلة أنه مختص به، ولذي الجلال والإكرام وحده ﴿غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة:٣٣]»[(١)].

الهدايات:

- «أنه كما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز: لا يكون مساويًا في الفضل، والشرف للناطق القادر الكامل، مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويًا لرب العالمين في المعبودية كان أولى»[(٢)].

- «فالتسوية بين الله وأي خلق من خلقه مرفوضة بالبداهة العقلية»[(٣)]، فكيف إذا كانت في أنقص المخلوقات.

- وتشبيه الأصنام بالأبكم ظاهر الدقة؛ فهي لا تأمر بعدل، ولا تهدي سبيلًا،

---

(١) نظم الدرر: (١١/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) تفسير الرازي: (٢٠/ ٢٤٨).

(٣) الأمثال القرآنية للميداني ص(٥٣).

فصفة الكلام كمال مطلق؛ لذلك اتصف بها الله تعالى كما تليق بعظمته.

- **وفيها**: بيان فضل الاستغناء والإنفاق، فهي صفات تنافي وصفه بالكَلّ، وقد قال ﷺ: «**واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس**»(١)، وقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»(٢).

- **وفيها**: أن من مقتضيات الصراط المستقيم الدعوةَ إليه، ولا يكفي مجرد السير عليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد:٣٦].

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: (١/ ٦١/ ٢)، والحاكم في المستدرك: (٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥)، وهو حسن بطرقه، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٢/ ٥٠٥)، رقم (٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلى عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٠٣٣).

المثل الثالث والثلاثون: كالتي نقضت غزلها

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

المعنى الإجمالي:

«﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال، وأقبحها، وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَٱلَّتِى﴾ تغزل غزلًا قويًا، فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته، فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة، والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفًا، غير قادر على الآخر أتمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه، وإن كان قويًا يرى مصلحته الدنيوية في نقضها نقضها، غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دورانًا مع أهوية النفوس، وتقديمًا لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا، وقوة

من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله، وامتحان، يبتليكم الله به، حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي، من الفاجر الشقي.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كلا بما عمل، ويخزي الغادر»[(١)].

المناسبات:

سُبق هذا المثل بالأمر بالوفاء بالعهد، والنهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها، ثم شرع في تأكيد وجوب الوفاء، وتحريم النقض، وتقبيحه؛ تنفيرًا منه، وذلك بتشبيهه بهذا المثل، الذي لا يختلف العقلاء في قبح صورته.

وكذلك عقب المثل بيان عظم أمر اليمين وتأكيدها، قال ابن قتيبة: «لا تؤكدوا على أنفسكم الإيمان والعهود، ثم تنقضوا ذلك، وتحنثوا، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت، ثم نقضت ذلك النسخ فجعلته أنكاثا»[(٢)].

الهدايات:

- عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، قال في قوله ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾: «فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه، وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده»[(٣)].

- **في التشبيه**: دلالة على مشقة الغزل، وأنه يحتاج إلى جهد ودقة وإتقان،

---

(١) تفسير السعدي: (٤٤٧).

(٢) غريب القرآن (٢١٠).

(٣) تفسير الطبري: (١٧/ ٢٨٤)، بإسناد حسن، كما في التفسير الصحيح: (٣/ ٢٠٢).

وهكذا هذه العهود مع الله تعالى تحتاج إلى مجاهدة النفس في الوفاء بها، والاتقان، واستحضار المراقبة في صيانتها، والمحافظة عليها.

- أن هذا الذي ينقض غزله بعد إحكامه لا شك في قبح فعله، وهكذا الذي ينقض عهد الله تعالى، ويضيع تكاليفه بعد العلم بها وأدائها.

- قال القاسمي: «ففي التمثيل إشارة إلى أن ناقض يمينه خارج من الرجال الكمّل، داخل في زمرة النساء، بل في أدناهن، وهي الخرقاء»[١].

- والله تبارك وتعالى بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيْمان التي تبرم بينهم، فمَنْ خان العهد، أو نقضَ الأيْمان لا يُوثق فيه، ولا يُطْمأنُ إلى حركته في الحياة، ويُسقطه المجتمع من نظره، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس[٢].

(١) محاسن التأويل: (٦/ ٤٠٤).

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: (١٣/ ٨١٧٩).

المثل الرابع والثلاثون: جناح الذل

سورة الإسراء

قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

المعنى الإجمالي:

أي: كن لهما ذليلًا؛ رحمة منك لهما، وتعظيمًا فيما أمرك به مما ليس معصية لله تعالى، وقيل: لا تمتنع من شيء أحباه.

والذل والذلة: مصدر الذليل، والذل: بكسر الذال من غيرهما، مصدر الذلول، نقول: دابة ذلول، بينة الذل إذا كانت لينة، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ [الملك: ١٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٤].

أي: وقل: يا رب اعطف عليهما برحمتك، كما عطفا عليّ في صغري، فرحماني، وربياني صغيرًا[(١)].

قال ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار بعد ذلك فأبعده الله

(١) النهاية إلى بلوغ الهداية لمكي بن أبي طالب: (٦/ ٤١٧٧).

وأسحقه»[١].

المناسبات:

نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيات السابقة عن العقوق؛ تقديمًا لما تدرأ به المفسدة، ثم أمر بالبر جلبًا للمصلحة، فقال تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣] أي بدل النهر وغيره ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣] أي حسنًا جميلًا يرضاه الله ورسوله مع ما يظهر فيه من اللين والرقة والشفقة وجبر الخاطر وبسط النفس، كما يقتضيه حسن الأدب، وجميل المروءة، ثم قال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤] أي جناح ذلّك، وبين المراد بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] أي من أجل الرحمة لهما، بل يطلب لهما الرحمة الباقية: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء:٢٤] بكرمك برحمتك الباقية، وجودك كما رحمتهما أنا برحمتي القاصرة مع بخلي وما فيّ من طبع اللوم ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ [الإسراء:٢٤] برحمتهما لي ﴿صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

ولما كان ذلك عسرًا جدًا حذر من التهاون به في الآية التالية، بقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ [البقرة:٢١] أي المحسن إليكم في الحقيقة، فإنه هو الذي عطف عليكم من يربيكم، وهو الذي أعانهم على ذلك ﴿أَعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٠] أي منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء:٢٥] من قصد البر بهما وغيره[٢].

---

(١) رواه أحمد: (١٩٠٢٧)، والبيهقي في الشعب: (٧٨٨٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير: (٢/ ٤٠)، والطبراني في الكبير: (٥٤٤)، بإسناد صحيح، كما في السلسلة الصحيحة، رقم (٥١٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (١١/ ٤٠٣).

الهدايات:

- ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤]: تشبيه بالطائر الذي يخفض جناحه عند الذل، وذلك لتعطفه على والديه؛ رحمة بهما، ورعيًا لحقوقهما.

- وفيه دقة؛ حيث إن الطيور من أظهر الحيوانات رقة وعطفًا بضم جناحيها، فإذا تعالت رفعت جناحيها لتطير بها.

- «والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه، ويزقّهم الغذاء يرى عجبًا، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام، فيقوم الوالدان بهذه المهمة، ثم يناولانهم غذاءهم جاهزًا يسهل بَلْعه، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراصون فرحة وسعادة»[١].

- ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة، كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل[٢]، قال ابن عطية: (وبولغ بذكر الذُّلِّ هنا، ولم يذكر في قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥] وذلك بحسب عظم الحق هنا)[٣].

- ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]: فيها الحث على الإخلاص في البر، والمعنى: تواضع لهما ذلًا لهما، ورحمة واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد[٤].

---

(١) تفسير الشعراوي: (١٤/ ٨٤٦٤).
(٢) تفسير البيضاوي: (٣/ ٢٥٢).
(٣) المحرر: (٣/ ٤٤٩).
(٤) تفسير السعدي (٤٥٦).

- في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ﴾ [الإسراء:٨٠]: إشارة إلى أنه سبحانه هو الرب المحسن إليّ بعطفهما عليّ، حتى ربياني، وكانا يقدماني على أنفسهما، فالمنة والفضل لله تعالى من قبل ومن بعد، ثم للوالدين.

- وفي الدعاء لهما بالرحمة: رد لإحسانهما الذي كان دافعه محض الرحمة، فالجزاء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

- والدعاء بالرحمة هنا في حياتهما، سواء كانا مسلميَن أو كافريَن، وأما بعد موتهما فيترحم على المسلم منهما فقط، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة:١١٣].

- وفي المثل: تكامل البر بالأفعال مع الأقوال، فأمر بخفض الجناح والطاعة بالأفعال، كما أمر بالدعاء، وهو من أعظم البر في الأقوال.

المثل الخامس والثلاثون: اليد المغلولة

سورة الإسراء

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩].

المعنى الإجمالي:

المثل هنا في وصف البخيل بأن يده كأنها مغلولة إلى عنقه، أي مقبوضة وممنوعة، قال الزمخشري: «هذا تمثيلٌ لمنع الشحيح، وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير فَتَقْعُدَ مَلُومًا فتصير ملوما عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضى عنده، وعند الناس:

يقول المحتاج: أعطى فلانًا وحرمني.

ويقول المستغنى: ما يحسن تدبير أمر المعيشة.

وعند نفسك: إذا احتجت فندمت على ما فعلت مَحْسُورًا منقطعًا بك، لا شيء عندك، من حسره السفر: إذا بلغ منه، وحسره بالمسألة»[(١)].

المناسبات:

لما أمر الله تعالى رسوله بالإنفاق في الآية المتقدمة: علمه في هذه الآية أدب الإنفاق، فبين أن التوسط هو سبيل الحكمة، ولذلك وصف عباده المؤمنين بهذه

(١) الكشاف: (٢/ ٦٦٢).

الصفة في سورة الفرقان، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم أعقب المثل ببيان أن الأرزاق كلها مقسومة، فمن أمسك أو أعطى: فلن يغير من رزق الله شيئا؛ ولذلك فعليه أن يعمل بمقتضى شرعه، الذي لن يخرج عن قدره، فيتوسط في جميع أمره.

الهدايات:

- قال ابن عاشور: «أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة، فكانت من الحكمة، وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة»(١).

- «أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط، وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]»(٢).

- فيها دلالة على صعوبة الصدقة والإنفاق على البخيل، فقد قال ﷺ: «**لا يخرج رجل شيئًا من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطانا**»(٣).

- **فيها**: أن الإنفاق في غير وجهه، والإسراف يؤدي في عاقبته إلى الحسرة والملامة، قال ابن قتيبة: «تَحْسِرُكَ العطيةُ وتقطعك، كما يَحْسِرُ السفر البعيرَ

(١) التحرير والتنوير: (١٥/ ٨٤).
(٢) تفسير الرازي: (٢٠/ ٣٢٩).
(٣) أخرجه أحمد: (٢٢٩٦٢) والطبراني في الأوسط: (١٠٣٨)، والحاكم: (١/ ٤١٧)، والبيهقي في السنن: (٤/ ١٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨١٤) والصحيحة (١٢٦٨)، وقد سبق.

فيبقى منقطعًا به. قال الزجّاج: المحسور: الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء، فالمعنى: فتقعد وقد بالغت في الحَمْل على نفسك وحالك، حتى صِرتَ بمنزلة من قد حَسَر»[1].

(١) زاد المسير: (٣/ ٢١).

المثل السادس والثلاثون: صاحب الجنتين

سورة الكهف

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا للمؤمن الفقير، والمشرك الجاحد الغني، برجلين: جعل لأحدهما بستانين من أعناب، محاطين بنخيل باسقة، وآتت الجنان ثمارها،

والأنهار تجري خلالها، فلم تنقص من نتاجها شيئا، فحصل منها من حسن المنظر وبهائه، ونضج الثمر وزهائه، ما جعله يفتخر على صاحبه المؤمن الفقير، ويستكبر عليه، وقال: أنا أكثر منك أموالا وأولادا وأنصارا وخدما، بل تمادى في الاستكبار حتى حكم بجهله أنها لن تبيد أبدا، أي لن تنقطع نعمتها، وتذهب خيراتها وبهجتها، بل غرته الحياة الدنيا حتى كفر بالآخرة، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦]، ثم يستدرك في غاية من الجهل فيقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، ولولا كرامتي عند الله ما أعطاني هذا في الدنيا، فلذلك لي في الآخرة على فرض قيامها خير منها، وقوله هذا: إما أن يكون اعتقادا منه؛ لغروره وفرط جهله، وإما أن يكون على وجه الاستهزاء والتهكم، كما حكى الله سبحانه عن العاص بن وائل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧] فكذب الله مقالته فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٨]، أي قوله بأن له في الآخرة أموالا وأولادا: إما لاطلاعه على الغيب، وإما أن الله أعطاه عهدا بذلك ووعده بما له هنالك، وكل ذلك لم يكن، فيكون قوله محض افتراء ورجمًا بالغيب، وهذا مثل قوله تعالى أيضا ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠].

ثم كان جواب المؤمن الصالح، والواعظ الناصح: كيف تكفر بمن خلق أصل البشر من تراب، ثم خلقك من نطفة، ثم سواك، وعدلك في صورة رجل كامل الأعضاء؟!

كيف تجحد فضله، ثم تنكر بعثه لك، وقد أسبغ عليك هذه النعم، وأوجدك من العدم؟! ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الأنفطار:٦-٨].

ثم بين حاله فيقول: لكني أؤمن بالله ربا، ولا أشرك به أحدا، وكان الأحرى بك إذا أعجبتك جنتك أن تقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف:٣٩]، فكل ما في البساتين من إنبات الزرع، وإخراج الماء إنما هو بمحض مشيئة الله تعالى وفضله، وليس ذلك بقوتك، بل الأمر كله لله كما قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٥] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠].

ثم يذكره بالدار الآخرة، وما عند الله فيقول: إن كنت تراني أقل منك مالًا وولدًا، لكن ما أرجوه عند الله خير وأبقى، ومع ذلك فعسى أن يرسل الله على جنتك هذه عذابا من السماء بمطر ونحوه، حتى تصبح صعيدا زلقا، أي بلقعا أملس، فتنقطع أشجارها، وتتلف ثمارها، ويزول نعيمها، أو يغور ماؤها في الأرض، فلا تستطيع إخراجه، أو الوصول إليه.

وإنما دعا عليه بذلك غضبا لله تعالى، ولما غرته بساتينه وأطغته، وصدته عن سبيله؛ لتكون عبرة وعظة له.

فاستجاب الله دعاءه، فأحاط العذاب بثمره، ولحق الهلاك بشجره، فأصبح يقلب كفيه على كثرة إنفاقه عليها، وذهاب أمواله فيها، ويقول متحسرا: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢]، ولكنه وبعد الافتخار بالأنصار، والأولاد، والخدم والأصحاب: لم يكن له من ينصره في محنته، ويدفع الهلاك عن جنته.

ثم يختم الله تعالى المثل بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٤]، وقيل في معناها: أن الموالاة لله، والرجوع إليه عند معاينة العذاب، والخضوع له عند وقوع العقاب، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقيل في معناها: هناك الحكم له وحده، فلا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، ولا مبدل لأمره، وكلها معان صحيحة.

وهذا المثل يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يضربه للناس لما يتضمنه من العظات والعبر.

المناسبات:

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآيات المشركين الظالمين، الذين استكبروا عن مجالسة الضعفاء من المسلمين، واستنكفوا عن سبيل المؤمنين، ثم ضرب هذا المثل لبين أن العاقبة للتقوى، وأن التفاضل ليس بعرض الدنيا، وهي مناسبة دقيقة تحمل النفوس على التفكر في الحقائق دون مجرد الظواهر، ولذلك أعقب هذا المثل بالكلام عن اليوم الآخر، وأحوال الناس فيه، تأكيدا لمبدأ التقوى، وميزان التفاضل.

الهدايات:

- في هذا المثل: اعتبار بحال من غرته الحياة الدنيا، وألهته طيباتها، وقابل نعمة الله بالكفر، ولم يكافئها بالشكر، كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢] وقال سبحانه محذرا: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴾ [إبراهيم:٢٨] فنسأل الله عقبى الدار والنجاة من النار.

- في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ [الكهف:٣٢]: تذكير بالعظيم، خالق النعم، التي أسبغها على خلقه، بتفاوت بينهم لحكمته.

- ذكر الجنتين والنخيل والأعناب: فيه بيان لتنوع الجنتين، وأن إحداهما في مرتفع بارد يزرع فيها الأعناب، والأخرى في منخفض حار تنبت فيه النخيل، وهذا أعظم رزقا؛ لتنوع منافع النخيل والأعناب، كما أنه اسلم عن شمول الآفة عليهما.

- وفي تأكيد كثرة ثمارها، يقول سبحانه: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣]، فلم تنقص شيئا من ثمارها، وما يكون من أقواتها.

- ثم ذكر أهم ما يحتاجه الزرع بل الحيوان، وهو الماء، فلم يعلق سقيها بغيث ونحوه، بل قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:٣٣]، وهو لفظ يدل على عظمة هذا الماء الذي يناسب عظمة تلك الجنتين.

- قوله: «﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ [الكهف:٣٥]: وحّد لإرادة الجنس ودلالة على ما أفاده الكلام من أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة، وإشارة إلى أنه لا جنة له غيرها؛ لأنه لا حظ له في الآخرة»(١).

- وفيه: أن كثرة الطغيان والبطر يغلب جانب الرجاء، فيضعف الخوف شيئًا فشيئًا؛ حتى يضمحل ويتلاشى، وقد يصل إلى الجحود والكفر، كما قال هنا: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وهذا يصدقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦-٧].

(١) نظم الدرر: (١٢/ ٥٩).

- فيه: أن التذكير بأصل الخلق من أنجع دواعي كسر النفس، والرجوع إلى فطرة الإيمان؛ لذلك قال هنا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف:٣٧].

- فيه: بيان أدب الداعية، وحسن إرشاده وتعليمه، وإرادة الخير لغيره، وعدم حقده وحسده، حيث قال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

- فيه: أن الصدق الإخلاص سبب في إجابة الدعاء، كما استجيب هنا للرجل الصالح الناصح.

- وفيه: أن العاقبة للمتقين، وأن مآل المستكبرين إلى الذلة والمهانة، والمعاملة بنقيض قصدهم.

المثل السابع والثلاثون: فأصبح هشيما

سورة الكهف

قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

المعنى الإجمالي:

أي: «﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ يا محمد للناس، ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا﴾ يابسا، ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أي: تفرقه، وتطرحه ذات اليمين، وذات الشمال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل»[(١)]، كما سبق في سورة يونس، وسيأتي في مواضع أخرى.

المناسبات:

«الكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين، فقال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين: ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ثم ذكر المثل»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير: (٥/ ١٦١).

(٢) تفسير الرازي: (٢١/ ٤٦٧).

ولذلك رغب بعد هذا المثل في الباقيات الصالحات، وبين عاقبتها في الآخرة.

وقال البقاعي: «ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم، فكانت سبب إشقائهم، وهم يحسبون أنها عين إسعادهم: ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها، وسرعة فنائها، وأن من تكبر بها كان أخس منها»[١].

الهدايات:

-قال القرطبي: «قالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء:

- لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد.

- ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة، كذلك الدنيا.

- ولأن الماء لا يبقى، ويذهب، كذلك الدنيا تفنى.

- ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها.

- ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعًا منبتًا، وإذا جاوز المقدار كان ضارًا مهلكًا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر»[٢].

- **فيها**: أن من أعظم أسباب البغي والتكبر والفساد في الأرض: حب الدنيا، والاغترار بظاهرها، ونسيان الآخرة، وعدم الاعتبار بفناء كثير من المخلوقات.

- **فيها**: أن «أحوال الدنيا أيضا كذلك تظهر أولًا في غاية الحسن والنضارة، ثم تتزايد قليلًا قليلًا ثم تأخذ في الانحطاط، إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء،

---

(١) نظم الدرر: (١٢/ ٦٧).

(٢) تفسير القرطبي: (١٠/ ٤١٢).

ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به»[١].

- **فيها**: أنه «ينبغي أن لا يغترن أهلها بها، ولا يفخرن ذوو الأموال الكثيرة بأموالهم، ولا يستكبرن بها على غيرهم، فإنّما هي ظلٌّ زائلٌ، وضيفٌ راحل»[٢].

- قوله: «﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: تنبيهًا على بليغ القدرة في إمساكه في العلو، وإنزاله في وقت الحاجة على الوجه النافع»[٣].

- فيها: أن الدنيا سريعة الزوال، فهي قصيرة مهما طالت، كسرعة الرياح التي تفرق ذلك الهشيم اليابس.

- فيها: أن كل هذه التقلبات في أحوال الدنيا، والفناء والزوال في مخلوقاتها دليل ظاهر، وبرهان قاهر، على قدرة الله تعالى الحي القيوم على كل شيء.

(١) تفسير الرازي: (٢١/ ٤٦٧).
(٢) حدائق الروح والريحان: (١٦/ ٣٨١).
(٣) نظم الدرر: (١٢/ ٦٨).

المثل الثامن والثلاثون: فكأنما خر من السماء

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١].

المعنى الإجمالي:

أمر الله تعالى عباده بالميل إلى التوحيد، والاستظلال بدياحه، والعكوف على بابه، وهو معنى «حنفاء»، فحذرهم من الشرك.

ثم ضرب تعالى مثلا للمشرك في هلاكه وضلاله، وبعده عن الهدى، بالذي خر من السماء، وسقط من العلو إلى الهاوية، فتخطفه الطير، أو تهوي به الرياح في أمكنة سحيقة بعيدة، فلا هو قادر على أن يرد عن نفسه تخطف، وتلقف الطيور له، ولا تلاعب الرياح به، ولا هو قادر على أن يصل إلى حيث يريد من الأمكنة الآمنة، بل هلاكه لا يرجى معه نجاة.

المناسبات:

حذر الله تعالى من الشرك به، واتخاذ الأوثان في الآيات السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، ثم ضرب مثلًا لتبشيع الشرك.

ثم أعقب المثل بالأمر بتعظيم شعائر الله، ويكون بتوحيد الله تعالى أولًا، ثم بالقيام بحقها المأمور به.

الهدايات:

- هذا تمثيل بالغ في العظمة، وتشبيه غاية في البلاغة؛ فالإيمان هو السمو الذي يرقى بصاحبه إلى الشرف والعلو، فهو علو في الدنيا، ومآله إلى العلو في الآخرة، في جنات عالية.

- وتارك هذا الإيمان هو الساقط إلى أسفل السافلين، في الدنيا والآخرة.

- والطيور التي تتخطفه هي الشياطين التي تجتاله وتضله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

- وهي كذلك تتضمن شياطين الإنس من دعاة الضلال، كما قال ﷺ: «**وعلى كل سبيل شيطان يدعو لها**»(١).

- والرياح التي تتلاعب به: هي الأهواء من الشهوات والشبهات، كما شبّه النبي ﷺ صاحب الضلالة بقوله ﷺ: «**تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب -داء كالجنون من عض الكلب- بصاحبه**»(٢).

- وهذا حال المشرك فلا يمكن أن يصل إلى مبتغاه من الطمأنينة والسكينة

---

(١) أخرجه أحمد: (١/ ٤٦٥)، والدارمي: (١/ ٦٠)، رقم (٢٠٨)، والحاكم: (٢/ ٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصححه ابن حبان: (١/ ١٠٥)، رقم (٦)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح: (١/ ٥٨)، رقم (١٦٠٦)، وصححه في تخريج شرح العقيدة الطحاوية: (ص٥٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٣٧) وأبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٧)، والدارمي: (٢/ ٢٤١)، والطبراني في الكبير: (١٩/ ٨٨٤)، والآجري في الشريعة (ص ١٨)، والمروزي في السنة (ص١٥)، والبيهقي في الدلائل: (٦/ ٥٤٢)، وهو في صحيح الترغيب: (١/ ٩٧/ ٤٨).

والأمان؛ لأن أهم مقومات هذه المعاني هو الإيمان، بل يبقى متخبطًا موسوسًا تائهًا في الأرض حيران، وصدق الحكيم؛ إذ يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]: والضلال حيرة واضطراب، وتنكب عن الصراط ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢].

المثل التاسع والثلاثون: ضعف الطالب والمطلوب

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا يأمر الناس بأن يستمعوا له؛ لقوة دلالته، وعلو برهانه، وقطعه لدابر الشرك من أصله، فالكلام عن آلهة المشركين في ضعفها وهوانها، وعدم ملكها لشيء، فأقل درجات الآلهة -التي لو تأملوا فيها لوجدوها مفقودة عند آلهتهم التي يدعونها من دون الله- أقلها أن تكون قادرة على نفع عابديها، ودفع الضر عنهم، وهنا جميع الخلق من هذه المعبودات وغيرها لن يقدروا على خلق ذبابة من العدم، ولو اجتمعوا جميعا على ذلك، هذا مع ضعف هذا المخلوق وحقارته في أعين ناظريه.

فهذا إثبات لعدم قدرتهم على نفعهم بشيء، ثم يثبت عجزهم أيضا عن دفع الضر عنهم، فيقول: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣]، فهذه البقايا المتناهية في الصغر التي يسلبها الذباب من طعامهم وشرابهم لا يستطيعون أن يرجعوه عنه، أو يستنقذوه منه، فإذا لم يستطيعوا على دفع عن الأمر الحقير، فكيف يستطيعون على ما هو أعظم منه من دفع الضر عن عابديهم في الدنيا،

وكذا في الآخرة بطريق الأولى! كما قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦]، فمن هذا حاله كيف يصلح أن يكون إلها ؟!

لذلك قال سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣]: أي هذا العاجز عن استرجاع ما أخذه الذباب، وهذا الذباب الضعيف الذي يُطلب منه ما سلبه.

كل منهما ضعيف عاجز مخلوق، لا يملك من دون الله شيئا: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾ [الفرقان:٣].

المناسبات:

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم»(١).

وقال البقاعي: «ولما أخبر تعالى عن أنه لا حجة لعابد غيره، وهدد من عاند، أتبعه بأن الحجة قائمة على أن ذلك الغير في غاية الحقارة، ولا قدرة له على دفع ما هدد به عابدوه، ولا على غيره، فكيف بالصلاحية لتلك الرتبة الشريفة، والخطة العالية المنيفة، فقال مناديًا أهل العقل منبهًا تنبيهًا عامًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [الحج:٧٣]»(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب: (٢٣/ ٢٥١).

(٢) نظم الدرر: (١٣/ ٩٤).

ثم ذكر الله تعالى بعد المثل أن كل ما يقع من الشرك هو من عدم تقدير الله تعالى حق قدره، وهو العظيم الخالق المدبر للكون، قال الرازي: « أي ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام -على نهاية خساستها- شريكة له في المعبودية»(١).

الهدايات:

- في هذا المثل بيان تفرد الله تعالى بالخلق، فمهما تطور الزمان، وتعلم هذا الإنسان: فهو عاجز عن خلق شيء من العدم، ولو كان من أحقر المخلوقات كالذباب، وهو سر اختيار الذباب.

- فكيف بما هو أعظم منه من الحيوان، أو الإنسان ؟!

لا شك أنهم أعجز عن أن يخلقوه، بل كيف بالسماوات والأرض؟!

والله تعالى يقول: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

- وفيه: دلالة على مشروعية التحدي والتعجيز للخصم، فالله تعالى غني عن الخلق، وقادر على هدايتهم للحق، لكنه نوّع بين أساليب مخاطبتهم؛ لتعليم الدعاة الهداة كيف يدعون الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

- قوله تعالى: ﴿ذُبَابًا﴾ [الحج:٧٣]، ولم يقل: ذبابة، مع أنه لن يقدروا على واحدة فضلا عن الجمع، ربما والله أعلم؛ لبيان كثرتها، وعدم إحصائهم لها،

(١) مفاتيح الغيب: (٢٣/ ٢٥٢).

ومع ذلك هم عاجزون عن خلقها.

قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]: فهو ضعف في أصل خلقته، كما هو ضعف في حجته، قال الرازي: (ضعف: لا من حيث القوة، ولكن لظهور قبح هذا المذهب، كما يقال للمرء عند المناظرة: ما أضعف هذا المذهب، وما أضعف هذا الوجه)[1].

(١) التفسير الكبير: (٢٣/ ٢٥٢).

المثل الأربعون: مثل نوره

سورة النور

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا لنوره، الذي أضاءت له السماوات والأرض، ويصور نوره في قلب المؤمن، وهذا النور هو الذي أودعه الله سبحانه إياه من الإيمان به، وتعظيمه، ومحبته كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

ويشبه الله هذا النور بمشكاة، وهي الكوة والطاقة التي تكون في الجدار، وهذه المشكاة فيها مصباح، وهذا المصباح في زجاجة صافية ناصعة، كأنها كوكب دري مضيء.

وهذا المصباح مادته التي توقده هي زيت عصر من زيتونة:

- ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾: بحيث لا تصيبها الشمس إذا غربت.
- ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: بحيث لا تصيبها الشمس إذا طلعت، وإنما هي في مكان

وسط تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فزيتها أصفى زيت وأنقاه من الشوائب حتى إنه يكاد يضيء من صفائه ولو لم تمسسه نار.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: فصفاء الزيت، ونقاؤه مع ضياء النار إذا لامسته، ونصاعة الزجاج، ولمعانه، يزيد من ضوء النار؛ فلذلك كان نورًا على نور.

المناسبات:

ولما أتم سبحانه الآيات في براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومقدماتها وخواتيمها، قال عاطفًا على قوله في أولها: ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور:١]: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ [النور٣٤] أي بما لنا من العظمة ترغيبًا لكم وترهيبًا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ [النور٣٤] أي لتتعظوا ﴿ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ [النور٣٤] مفصل فيها الحق من الباطل، موضح بالنقل والعقل بحيث صارت لشدة بيانها تبين هي لمن تدبرها طرق الصواب، مما هو صلاحكم في الدين والدنيا ﴿وَمَثَلًا﴾ [النور٣٤] أي وشبهًا بأحوالكم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور٣٤] أي من أحوالهم بما أنزل الله إليهم، في التوراة، في أحوال المخالطة، وقذف الأبرياء، كيوسف ومريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مما صار في حسن سبكه في هذا الكتاب، وبديع حبكه عند أولي الألباب، كالأمثال السائرة، والأفلاك الدائرة ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور٣٤]: بما فيه من الأحكام، والفواصل المنبئة عن العلل، المذكرة بما يقرب من الله زلفى، وينور القلب، ويوجب الحب والألفة، ويذهب وحر الصدر؛ ثم علل إنزاله لذلك على هذا السنن الأقوم، والنظم المحكم بذكر هذا المثل.

ثم ذكر بعده حال أهل الإيمان في عبادة الله تعالى، ثم ذكر مثلين بعده في حال الكفر وأهله[١].

الهدايات:

ولو تأملت في هذا التصوير البديع، ثم قارنته بقلب المؤمن: لوجدته تشبيها بليغًا، ومثلًا عظيمًا، وذلك كما يلي:

- فهنا مثل للنور، ومحله، وحامله، ومادته، فهذا النور هو الإيمان كما سبق[٢]، والمشكاة في الحائط: هي صدر المؤمن محل هذا النور، والزجاجة: هي قلبه الذي يحمل النور، ووجه الشبه بينهما الصفاء والرقة والصلابة، فيرى الحق بصفائه، وتحصل له الرأفة والرحمة والشفقة برقته.

- كما أنه يجاهد الأعداء بصلابته، ولا ينفذ إليه شيء من باطلهم.

- ومادة هذا القلب التي تغذيه وتنيره: هي ذلك الزيت من تلك الشجرة المباركة، وهي شجرة الوحي الوسط بين طرفين، والعدل بين المفرِّطين من اليهود، والمغالين من النصارى.

- وفيه: طلب التوسط والاعتدال، بعيدًا عن التكلف أو الإهمال، وعدم المغالاة، أو المجافاة، كما تكاثرت بذلك النصوص.

- وبمجموع هذا الزيت مع النار، والزجاجة: يضيء المصباح، وهو الإيمان.

- مع أن هذا القلب يكاد يعرف الحق، ويهتدي إليه بفطرته وعقله، مثل ذلك الزيت الذي يكاد يضيء بنفسه.

---

(١) نظم الدرر: (١٣/ ٢٧١)، بتصرف.

(٢) واختاره جماعة، ورجحه ابن القيم، ينظر: إعلام الموقعين: (٢/ ٢٨٠).

- ولكن لا بد له من الوحي؛ ليجتمع نوره مع نور الفطرة والعقل، فيكون نورًا على نور.

- ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥] كما قال ﷺ: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل؛ فلذلك أقول: جف القلم على علم الله** عَزَّوَجَلَّ»(١).

- وبمقدار هذا النور في الدنيا يظهر في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد:١٢].

- وهم متفاوتون فيه تفاوتًا عظيمًا، كتفاوتهم في إيمانهم، وأعمالهم، ودرجاتهم، والله عليم بكل ذلك لا يظلم أحدًا؛ لذلك ختم هذا المثل العظيم بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

(١) رواه أحمد (٦٦٤٤)، والحاكم (١/ ٣٠-٣١)، وقال: (هذا حديث صحيح، قد تداوله الأئمة، وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة). وقال الذهبي: على شرطهما، ولا علة له. وصححه الألباني، كما في السلسلة الصحيحة، رقم (١٠٧٦).

المثل الحادي والأربعون: كسراب بقيعة

سورة النور

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

المعنى الإجمالي:

ضرب الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين مثلين عظيمين، وشبههم بتشبيهين بليغين:

المثل الأول: السراب، **والثاني**: الظلمات وسيأتي بعده، وقد سبق ما ضربه الله تعالى للمنافقين من المثلين المائي والناري، وكذلك ما ضربه للمؤمنين من المثلين المائي والناري.

أما المثل الأول هنا: فيشبه الله تعالى أعمال الكفار بسراب بقيعة، أي بأرض خالية من النبات والشجر والبناء والحجر، وفي هذا المثل من وجوه التشبيه ما تقف عندها القلوب خاشعة، فأعمالهم هنا كالسراب الذي لا حقيقة له، مع أنهم يحسبون أنهم على هدى، كما يحسب الظمآن أن ذلك السراب ماء: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾، فلذلك لما احتاجوا إلى أعمالهم، وأرادوا الانتفاع من أجرها، والاستشفاع بها: لم يجدوها شيئا، فوفاهم الله حسابهم بما يستحقونه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾، كما قال سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

المناسبات:

«لما أخبر تعالى أن الذين اتبعوا نور الحق سبحانه، وصلوا -من جزائه بسبب ما هداهم إليه النور من الأعمال الصالحة- إلى حقائق هي في نفس الأمر الحقائق، أخبر عن أضدادهم الذين اتبعوا الباطل، فحالت جباله الوعرة الشامخة بين أبصار بصائرهم، وبين تلك الأنوار، بضد حالهم»(١).

الهدايات:

- هذه الأعمال التي كالسراب قامت في قلوب قاسية قحطت عن مادة الحياة، وأقفرت من الأيمان والهدى، كتلك الأرض القفر التي ظهر فيها السراب، وهذا الشبه العظيم يقع لهم حقيقة في الآخرة، كما في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه قوله ﷺ: «**ثم يؤتى بجهنم تعرض لهم كأنها السراب يحطم بعضها بعضا... فيقال لهم: اشربوا، فيساقطون فيها**»(٢)، فتأمل هذا التعانق بين الآية والحديث.

- **فيها**: بيان عظم الحسرة التي ستقع عليهم حينما يحتاجون إلى أعمالهم، ويتطلبون ثوابها، ويعلقون نجاتهم بها، كمثل ذلك الظمآن الذي اضطر إلى الماء، وشارف على الهلاك، ثم رأى السراب، فتعلق به، لكن سرعان ما تكشفت له الحقيقة فتحسر لها، وسقط في يديه منها.

- **فيه**: دلالة على اليقين الذي سيصلون إليه، والحقيقة التي سيقفون عندها رأي العين، كما يكشف ذلك الظمآن حقيقة تلك السراب، ويتيقن بعدم فائدته.

---

(١) نظم الدرر: (١٣/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم: (٤٥٨١، ٧٤٣٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم: (١٨٣).

- **فيها**: بيان سرعة حسابهم، وأن الدنيا مهما ظنوا طولها فهي قصيرة، وسرعان ما ينكشف لهم زيفها، كسرعة انكشاف ذلك السراب للظمآن.

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩]: قال الرازي: (فذاك لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب، وقال بعض المتكلمين: معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن)[١].

(١) التفسير الكبير: (٢٤/ ٤٠٠).

المثل الثاني والأربعون: في بحر لجي

سورة النور

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

المعنى الإجمالي:

هذا المثل الثاني للكفار: وهو مثل الظلمات: فالكفار هم الذين عرفوا الحق والهدى والنور، ومع ذلك آثروا الباطل والضلال؛ فلذلك تخبطوا في ظلمات متراكبة، وأمواج متلاطمة: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، فشبههم الله تعالى كمن هو في بحر لجي عميق، لا ساحل له، يغشاه موج فوقه، تأكل الأمواج بعضها، ومن فوق هذه الأمواج سحاب مظلم، حتى إنه لو أخرج يده من بين هذه الظلمات لم يكد يراها؛ لشدتها وسوادها.

فهو في ظلمات بعضها فوق بعض، وهو حال ظلمات الكفار، وهذا كله لانقطاع مادة النور من قلوبهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يهدي بنوره من يشاء، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وذلك بالوحي الذي يتضمن الهداية والإيمان: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ

صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

المناسبات:

«لما بين سبحانه بهذا المثال أنهم لم يصلوا إلى شيء غير التعب، المثمر للعطب، وكان هذا لا يفعله بنفسه عاقل، ضرب مثالًا آخر بين الحامل لهم على الوقوع في ممثول الأول، وهو السير بغير دليل، الموقع في خبط العشواء، كالماشي في الظلام»(١).

ثم بين في الآيات بعدها أن الله تعالى يعبده كل شيء، وإن تنكره بعض الإنس والجن، فهم ليسوا شيئا أمام خلق الله تعالى المسبح بحمده، والمعظم لمجده.

الهدايات:

- المثل الأول السابق كان حول حال الضالين، الذين لا ينفعهم عملهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وهذا المثل الثاني هو حال المغضوب عليهم، ممن عرف الحق وخالفه، فعموا بعد أن أبصروا، وجحدوا بعد أن عرفوا، فالأولون ضلال العمل، والآخرون ضلال العلم.

- وفي الآية التي قبلها: حال المنعم عليهم المهتدين في قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور:٣٥]. فذكر الله سبحانه في هذه الآيات أحوال الناس، وأصنافهم، وفرقهم التي لا يخرجون عنها، وهم المذكورون في سورة الفاتحة، وهم: المهتدون، والضالون، والمغضوب عليهم، في قوله سبحانه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

---

(١) نظم الدرر: (١٣/ ٢٨٦).

- حسنات الكفار سراب لا ينفع، وسيئاتهم ظلمات متلاطمة، قال البيضاوي: (فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب، وإن كانت قبيحة فكالظلمات)[١].

- ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور:٤٠]: ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب، وهذا حال هؤلاء الكفار؛ في ظلمة الكفر في قلوبهم، التي تعلوها ظلمة الشكوك والشبهات، ومن فوقها ظلمة الأهواء والأباطيل والانحرافات، وقيل ظلمات الكافر الثلاثة هي: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، وقيل: ظلمة قلبه، وبصره، وسمعه[٢].

- وقال أبي بن كعب: (فهو يتقلب في خمس من الظلم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار)[٣].

- وقال ابن جرير: (فكذلك قلب هذا الكافر، الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات: يغشاه الجهل بالله، بأن الله ختم عليه، فلا يعقل عن الله، وعلى سمعه، فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة، فلا يبصر به حجج الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض)[٤].

- في قوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور:٤٠]: لما كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها، ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها قال: لم يكد يراها، وبين سبحانه بهذا البلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات، ثم شبه به الكافر

---

(١) أنوار التنزيل: (٤/ ١٠٩).
(٢) ينظر: زاد المسير: (٣/ ٣٠٠).
(٣) رواه ابن جرير: (١٩/ ١٩٨)، وهو حسن كما في التفسير الصحيح: (٣/ ٤٧٥).
(٤) تفسير الطبري: (١٩/ ١٩٧).

في اعتقاده[١].

- وفي آخرها: «أعلم تعالى عباده أن النور له، وبيده، فمن لم يطلبه منه حرمه وعاش في الظلمات، والعياذ بالله»[٢].

- لما وصف سبحانه هداية المؤمن بأنها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥]، ولما وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبها بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

- والمقصود من ذلك أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان، وظلمة الطريق لا تمنع منه، فإن الكل بمشيئة الله تعالى وهدايته وتقديره[٣].

(١) التفسير الكبير: (٢٤/ ٤٠٠).
(٢) أيس التفاسير للجزائري: (٣/ ٥٧٦).
(٣) التفسير الكبير: (٢٤/ ٤٠١).

المثل الثالث والأربعون: إن هم إلا كالأنعام

سورة الفرقان

قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

المعنى الإجمالي:

ضرب الله تعالى مثلا للكفار الذين لا يسمعون الهدى سماعا ينتفعون به، ولا يعقلون ما أنزل الله من البينات والوحي، فيشبههم بالأنعام التي لا تسمع ما يقال لها، ولا تفقه حقيقته، ولا تعقل مراده، وهذا التشبيه قد ذكره الله تعالى في سورة الأعراف كذلك، بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩] وذلك لقوة الشبه بينهما، بل قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

المناسبات:

أخبر الله تعالى بحقيقة حالهم، في ابتدائهم ومآلهم، وكان ذلك مما يحزنه ﷺ لشدة حرصه على رجوعهم، ولزوم ما ينفعهم واجتناب ما يضرهم، سلاه بقوله معجبًا من حالهم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ﴾ أي كلف نفسه أن أخذ ﴿إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:٤٣] أي أنهم حقروا الإله بإنزاله إلى رتبة الهوى، فهم لا يعبدون إلا الهوى، وهو ميل الشهوة، ورمي النفس إلى الشيء، لا شبهة لهم أصلًا في

عبادة الأصنام، يرجعون عنها إذا جلت، فهم لا ينفكون عن عبادتها ما دام هواهم موجودًا، فلا يقدر على كفهم عن ذلك إلا القادر على صرف تلك الأهواء، وهو الله وحده[١].

فبين في هذا المثل حالهم من هذا الوحي، فشبههم بالأنعام في اتباع شهواتهم، وعدم إعمال عقولهم؛ لذلك ذكر بعد المثل جملة من الدلائل العيانية على ألوهية الله تعالى وربوبيته؛ ليتفكروا فيها.

الهدايات:

- قال الرازي: «لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة، فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام، وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر، وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية، وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية»[٢].

- من وجوه وصفهم بأنهم أضل من الأنعام ما يلي:

أولا: أن الأنعام وإن كانت لا تعقل: إلا أنها تنساق لمن يقودها، وتهتدي بمن يحدوها، فتسير بتوجيه راعيها، لا تميل عن طريقه، بينما هؤلاء لا يهتدون بمن يدعوهم من الرسل وأتباعهم، ولا ينقادون لأوامرهم، مع أنهم أدرى بمصالحهم، وهذا وجه ظاهر في تفضيل الأنعام عليهم.

ثانيا: أن هذه الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها، فتجتنب ما يضرها من النباتات أو الطرق، بينما هؤلاء لا يفرقون بين الهدى الذي ينفعهم في دنياهم

(١) ينظر: نظم الدرر: (١٣/ ٣٩٣).
(٢) التفسير الكبير: (٢٤/ ٤٦٣).

وأخراهم، وبين الضلال الذي يضرهم في عاجلهم وآجلهم، فكانوا من هذا الوجه أضل سبيلا.

ثالثا: أن هذه الأنعام تأكل وتشرب وتتناكح، بالقدر الذي تحتاجه، بينما هؤلاء غارقون في شهواتهم، يتفننون في ملذاتهم، يخوضون فيما زاد عن حقوقهم، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

رابعا: وهو أن هذه الأنعام لم يجعل الله لها قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تجيب بها، فكان لهم في عدم فهمهم، وإجابتهم لداعيهم عذر.

بينما هؤلاء الذين خالفوا داعيهم من الرسل: لم ينتفعوا بنعمة الله عليهم من القلوب التي يعقلون بها، أو الألسنة التي ينطقون بها.

خامسا: وهو أعظم الوجوه أن الأنعام متعبدة لله، مسبحة بحمده، ساجدة لوجهه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، فالدواب جميعها ساجدة لله تعالى، وكثير من الناس حق عليهم العذاب؛ لتكبرهم عن عبادته، وتنكرهم لطاعته، فكانوا أضل سبيلا، وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، فجميع الخلائق مفطورة على التعبد للخالق.

المثل الرابع والأربعون: كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١].

المعنى الإجمالي:

هنا تشبيه عظيم؛ يضرب الله فيه مثلا لآلهة المشركين ببيت العنكبوت، ويشبه المشركين في اتخاذهم لهذه الآلهة بالعنكبوت التي اتخذت ذلك البيت، الذي هو أوهى البيوت، وأضعفها حسيا ومعنويا؛ لذلك قال في آخرها: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو علموا حقيقة العلم لعملوا بمقتضى عقولهم، وتعبدوا لربهم.

قال ابن عطية: «شبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام، وبنائهم جميع أمورهم على ذلك بالْعَنْكَبُوتِ، التي تبني وتجتهد، وأمرها كلها ضعيف، متى مسته أدنى هابّة أذهبته، فكذلك أمر أولئك، وسعيهم مضمحل، لا قوة له، ولا معتمد»(١).

(١) المحرر الوجيز: (٤/ ٣١٨).

المناسبات:

ذكر الله تعالى الأمم السابقة المكذبة لرسلها، وبين أنواع العقوبات التي حلت بهم؛ لكفرهم وظلمهم في قوله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠].

وأما ما عبدوه، ورجوا نصره لهم، وأملوه: فأضعف منهم، ولكون شيء منه لم يغن عن أحد منهم شيئًا، فلم تختل سنة الله في أوليائه، وأعدائه في قرن من القرون، ولا عصر من العصور، بل جرت على أقوم نظام، واتقن إحكام، وصل بذلك بهذا المثل الذي يبين ضعفهم وعجزهم عن نصرتهم(١).

ثم أعقب المثل بأن الله تعالى هو العليم بكل شيء، الحكيم بضربه الأمثال، الخالق القدير.

الهدايات:

- تحت هذا المثل أن هؤلاء لم يستفيدوا من اتخاذهم لآلهتهم والاستنصار بهم إلا بعدا عن نصرة الله تعالى، وتأييده وتوفيقه، فحصل لهم باتخاذ هذه الآلهة نقيض مقصودهم، وعاملهم الله بضد مرادهم كما قال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١-٨٢] وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

---

(١) ينظر: نظم الدرر: (١٤/ ٤٤١).

- حقيقة الأمر: أنهم كتلك العنكبوت التي تلقى غاية التعب والعناء، وتشقى غاية الشقاء، وتبذل جهدها في بناء بيتها، ومع ذلك لا ينفعها، ولا يدفع الضر عنها، ولا يقيها الريح والمطر، ولا الحر والقر[١].

- والسر في تشبيههم ببيت العنكبوت: استخباث هذا البيت، وهذا الحيوان عند أكثر الناس ممن سلمت طبائعهم، وما يعلم فيها من أنواع الشرور.

- قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لم ينف سبحانه عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم الموتى أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك ما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة، والأمر في الواقع بخلاف ما ظنوه[٢].

(١) ينظر: تفسير السمعاني: (٤/ ١٨٢)، بتصرف.
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم: (١/ ١٢٠).

المثل الخامس والأربعون: فأنتم فيه سواء

سورة الروم

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله سبحانه مثلا للمشركين الذين يجعلون لله جل وعلا شركاء من ملكه وعبيده وخلقه، وبين سبحانه أن هذا المثل حجة عليهم، يعرفون صحتها من نفوسهم، وينطقون بها بقلوبهم، لا يحتاجون إلى غيرهم؛ ليقيمها عليهم، فيقول: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: هل لكم من عبيدكم، وممن تملكون من يشارككم في أرزاقكم من الأموال والأهل والأولاد، ويقاسمونكم هذه الأموال، وأنتم وهم سواء في ذلك، يخاف بعضكم أن يستأثر الآخر بنصيبه، كما هو حال أكثر الشركاء، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤].

فهذا الاستفهام البليغ يتضمن نفي ذلك وإنكاره، فلا أحد يرضى أن يكون عبده شريكا له في ملكه، متساويا معه في حقه، منازعا له في تصرفه في نصيبه، فكيف يرضون ذلك لخالقهم ورازقهم سبحانه!

المناسبات:

لما بين الإعادة والقدرة عليها بالأدلة ثم بالمثل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]: بيّن الوحدانية أيضا بالمثل بعد ذكر الدليل في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم:٢٦]، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكا له في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا(١).

«ولما كان البيان لا ينفع المسلوب قال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] إشارة إلى أنهم إن لم يعملوا بمقتضى ذلك كانوا مجانين، لأن التمثيل يكشف المعاني بالتصوير والتشكيل كشفًا لا يدع لبسًا، فمن خفي عليه لم يكن له تمييز.

ولما كان جوابهم قطعًا: ليس لنا شركاء بهذا الوصف، كان التقدير، فلم تتبعوا في الإشراك بالله دليلًا»(٢).

الهدايات:

- إذا كان هذا الإنسان المخلوق لا يرضى لنفسه أن يشاركه عبده المخلوق مثله، فكيف يرضى لربه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الخالق لكل شيء والمالك لكل شيء- أن يشاركه عبده المخلوق المملوك له، مع أن مشاركة العبد لسيده جائزة عقلا؛ لاشتراكهم في الخلق والعبودية للملك الحق، فالملك حقيقة لله تعالى، وإنما سخرهم الله لهم؛ لتقوم معايشهم، كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا

(١) ينظر: تفسير الرازي: (٢٥/ ٩٧).
(٢) نظم الدرر: (١٥/ ٨١).

بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢]، وقال ﷺ: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم**»(١).

وأما مشاركة المخلوق من العدم والمملوك لمفيض النعم فممتنعة عقلا وطبعا وشرعا.

- فتأمل في هذه الحجة العقلية، والحقيقة الفطرية، والضرورة الشرعية؛ لذلك ختمها الله تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨].

- قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢١]: يعني ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها، ونقصانها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرته، وهو من قياس الأولى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ [النحل :٦٠].

- وكذلك: ضرب لكم مثلا قريبا من أنفسكم، لا يحتاج إلى ارتحال لمعرفته، أو تكلف في فهمه، فهو يسير في الوصول إلى حقيقة تصوره وتعقله.

- قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [الروم:٢٨]: يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له، فإذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة ؟!(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم (٣٠)، ومسلم، كتاب الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم (١٦٦١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٢٥/ ٩٧).

- قوله: ﴿فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ﴾ [الروم:٢٨]: فهم لا يرضون أن يشاركهم ما ملكت أيمانهم في شيء من الرزق فضلا على أن يساووهم فيه، فيكونون سواء، فكيف يرضون ذلك لخالقهم؟!

المثل السادس والأربعون: كلمات الله تعالى

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

المعنى الإجمالي:

هذا المثل ورد نحوه في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، والمقصود به التقريب.

ومعناه هنا: «لو كانت شجر الأرض أقلامًا، وكان البحر، ومعه سبعة أبحر مِدادًا -وفي الكلام محذوف تقديره: فكُتب بهذه الأقلام، وهذه البحور كلمات الله عَزَّوَجَلَّ- لتكسّرت الأقلام، ونفدت البحور، ولم تنفد كلماتُ الله، أي: لم تنقطع»(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠] « **أي: عزيز، قد عز كل شيء، وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد، ولا مخالف، ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه، وجميع شؤونه**»(٢).

---

(١) زاد المسير: (٣/ ٤٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٤٩).

المناسبات:

أخبر الله تعالى قبل هذا المثل عن ملكه للسماوات والأرض، وسعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، «ولما كان الغني قد يكون ماله محصورًا، كما في السماوات والأرض، الذي قدم أنه له، والمحمود قد يكون ما يحمد عليه مضبوطًا مقصورًا: أثبتت أنه على غير ذلك، بل لا حد لغناه، ولا ضبط لمعلوماته، ومقدوراته الموجبة لحمده ولا تناه»(١).

«فأخبر في هذا المثل عن سعة كلامه، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبهر له العقول، وتحير فيه الأفئدة، وتسيح في معرفته أولو الألباب والبصائر، وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لمّا علم تبارك وتعالى، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيها تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم»(٢).

لذلك قال بعد هذه الآية: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان:٢٨]؛ تحقيقا للعظمة، وصفات العزة، والعلم، والإحاطة، والقوة، وغيرها من الكمالات، قال المراغي: «ولما كانت تلك النعم لا نهاية لها، وربما ظن أنها مبعثرة، لا قانون لها، أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها، وتصريف شئونها كما يريد: دفع هذا بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا

(١) نظم الدرر: (١٥/ ١٩٦).
(٢) تفسير السعدي: (٦٥٠).

كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾»[١].

الهدايات:

- قال السعدي: «وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر، أضعافًا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة.

- وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاده، وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية»[٢].

- **وفيه**: استخدام أسلوب المبالغة، قال ابن كثير: « وإنما ذكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر فقط، بل بمثله، ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلم جرا؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته»[٣].

---

(١) تفسير المراغي: (٢١/ ٩٣).

(٢) تفسير السعدي: (٦٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٤٨).

- **وفيه**: أن أي «سعة وعظمة تصورتها القلوب: فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، لا شيء، ذلك بأن الله، له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى»[١].

(١) تفسير السعدي: (٤٨٨).

المثل السابع والأربعون: كالذي يغشى عليه من الموت

سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٩].

المعنى الإجمالي:

قال ابن عطية: «وهذا الشح قيل: هو بأنفسهم يشحون على المؤمنين بها، وقيل: هو بإخوانهم، وقيل: بأموالهم في النفقات في سبيل الله، وقيل: بالغنيمة عند القسم. والصواب: تعميم الشح، أن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة»(١).

فهم أشحة بأبدانهم عند القتال، وبأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

فإذا جاء القتال رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشى عليه من شدة الجبن، الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفا من إجبارهم على ما يكرهون، من القتال.

فإذا ذهب الخوف وصاروا في حال الأمن والطمأنينة: خاطبوكم، وتكلموا معكم، بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

---

(١) المحرر: (٤/ ٣٧٥).

وحين تسمعهم: تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، أشحة على الخير الذي يراد منهم.

أولئك الذين بتلك الحالة لم يؤمنوا، وبسبب عدم إيمانهم: أحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا[١].

المناسبات:

ذكر الله تعالى صفات المنافقين في الآيات قبلها، وبيّن فرارهم من القتال، وتثبيطهم لغيرهم، «ولما كانوا يوجهون لكل من أفعالهم هذه وجها صالحا: بين فساد قصدهم بقوله؛ ذاما غاية الذم بالتعبير «الشح» الذي هو التناهي في البخل، فهو بخل بما في اليد، وأمر للغير بالبخل، فهو بخل إلى بخل خبيث قذر، متمادى فيه مسارع إليه»[٢].

ثم ضرب هذا المثل في بيان حالهم في الخوف، وتتابعت الآيات بعدها في كشف سوء أوصافهم.

الهدايات:

- **فيها**: أن من شرور ما في الإنسان، أن يكون شحيحا بما أمر به، شحيحًا بماله أن ينفقه في وجهه، شحيحا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحا بجاهه، شحيحا بعلمه، ونصيحته ورأيه.

- **فيها**: بيان جبن وخور هؤلاء المنافقين، وحرصهم على الدنيا، وتشبثهم بها، حتى وصفهم بهذا الوصف البليغ: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص٦٦٠).

(٢) نظم الدرر: (١٥/ ٣١٤).

- **فيها**: أن المؤمنين قد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم ابتغاء مرضاته.

- **فيها**: ذم هذه الصفة، وأن المؤمن الحق لا يخاف من الجهاد في سبيل الله؛ لأنه يرجو ما عند الله، ويحسن الظن بمولاه، ويعلم بأنه فائز في الحالين بإحدى الحسنيين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ [التوبة:٥٢].

- **وفيها**: أن سلاطة اللسان، وإسلاس القياد له من صفات المنافقين، كما قال ﷺ: «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»(١).

(١) رواه أحمد: (٢٢٣١٢)، والحاكم في المستدرك: (١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني كما صحيح الجامع: (٣٢٠١).

المثل الثامن والأربعون: من في القبور

سورة فاطر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

المعنى الإجمالي:

فيها احتمال معنيين:

الأول: أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى؛ فإن الله يسمع الموتى، والنبي ﷺ لا يسمع من مات وقبر، فالموتى سامعون من الله، والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي ﷺ.

والثاني: أن يكون المراد تسلية النبي ﷺ؛ فإنه لما بين له أنه لا ينفعهم، ولا يسمعهم قال له: هؤلاء لا يسمعهم إلا الله، فإنه يسمع من يشاء، ولو كان صخرة صماء، وأما أنت فلا تسمع من في القبور، فما عليك من حسابهم من شيء[1].

المناسبات:

«لما ذكر أنه ما يستوي الأحياء ولا الأموات، قال: وما أنت بمسمع من في القبور: أي هؤلاء، من عدم إصغائهم إلى سماع الحق، بمنزلة من هم قد ماتوا، فأقاموا في قبورهم، فكما أن من مات لا يمكن أن يقبل منك قول

(١) مفاتيح الغيب: (٢٦/ ٢٣٣).

الحق، فكذلك هؤلاء، لأنهم أموات القلوب»[١].

فلما كانوا على هذه الصفة ذكر بعد المثل أن على الرسول البشارة والنذارة، وأما سماع الهداية والتوفيق فهي من الله تعالى.

الهدايات:

- قال الرازي: «ما الفائدة في تكثير الأمثلة هاهنا حيث ذكر الأعمى والبصير، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات؟ فنقول: الأول: مثل المؤمن والكافر، فالمؤمن بصير والكافر أعمى، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر، ولكن لا يبصر شيئا، إن لم يكن في ضوء.

فذكر للإيمان والكفر مثلا، وقال: الإيمان نور، والمؤمن بصير، والبصير لا يخفى عليه النور، والكفر ظلمة، والكافر أعمى، فله صاد فوق صاد.

ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢] مثلا آخر في حق المؤمن والكافر، كأنه قال تعالى: حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير؛ فإن الأعمى يشارك البصير في إدراك ما، والكافر غير مدرك إدراكا نافعًا، فهو كالميت.

ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا: وما يستوي الأعمى والبصير، وعطف الظلمات والنور، والظل والحرور، ثم أعاد الفعل، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، كأنه جعل هذا مقابلا لذلك»[٢].

---

(١) البحر المحيط: (٩/ ٢٧).

(٢) مفاتيح الغيب: (٢٦/ ٢٣٢).

- **وفيه**: أن الذي لم يدخل الإيمان في قلبه، ولم يحي به، فهو ميت لا حياة فيه؛ فإن الوحي الذي جاء بالإيمان هو الروح، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

- **في هذا المثل**: تسلية الدعاة؛ ليتدرّعوا بالصبر، ويلتزموا الثبات، وإن تنكر الناس دعوتهم، فإنما عليهم البلاغ المبين، وأما السماع والهدى فهو من الله تعالى.

المثل التاسع والأربعون: في أعناقهم أغلال

سورة يس

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨-٩].

المعنى الإجمالي:

الأغلال: جمع غل: وهو ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق عظيمة قد وصلت إلى أذقانهم، ورفعت رؤوسهم إلى فوق.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: أي: حاجزًا يحجزهم عن الإيمان.

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: قد غمرهم الجهل، والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة[1].

المناسبات:

ذكر الله تعالى في الآية قبلها أنهم لا يتجدد منهم إيمان بعد البيان الواضح والحكمة الباهرة، وكان ذلك أمرًا عجبًا، عالله بما يوجبه من تمثيل حالهم؛

(١) تفسير السعدي (٦٩٢).

تصويرًا لعزته سبحانه، وباهر عظمته، فضرب هذا المثل الذي يدل على عدم إبصارهم.

ثم ذكر في الآية بعدها عدم سمعهم، مهما تتابعت عليهم النذارة، ففقدوا حاسة السمع للحق، كما فقدوا حاسة البصر(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠].

الهدايات:

- في المثل أن الأنبياء عليهم النذارة والبشارة والبلاغ، وأما هداية القلوب فهي خالصة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨].

- **وفيه**: أن الإعراض عن الحق طريق للزيغ، والران على القلب، والغشاوة على البصر، فهي عقوبات متتالية، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

- **وفيه**: أن الكفر كالغل في العنق، يكبل صاحبه، ويضيّق عليه نفَسَه، وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقد سبق الكلام عن هذا المثل.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: (١٦/ ٩٨).

- **وفيه**: أن الكفر كالسد، الذي يمنع من إبصار الطريق على وجهه، وهو حقيقة العمى، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

- **وفيه**: قوة العلاقة بين البصر والقلب، فهؤلاء أغشيت أبصارهم، فلم تبصر قلوبهم الحق، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

المثل الخمسون: قل يحييها الذي أنشأها أول مرة

سورة يس

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات العظيمة يحكي الله تعالى مثلًا يضربه الكافرون المنكرون للبعث، ثم يجيب عليه سبحانه بثلاثة أمثلة وافية، هي حجج وبراهين كافية، في دحض حجة هؤلاء الجاحدين.

أما مثل هذا الكافر: فهو قياسه قدرة الخالق على قدرة المخلوق، في استبعاد إحياء هذه العظام، بعد أن بليت، كما قال سبحانه عنهم في آية أخرى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١١-١٢]، فمثل هذه الأمثلة التي تتضمن قياس الخالق على المخلوق نهى الله عنها وحذر منها، فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾: مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ مجملًا ومفصلًا، قبل خلقه وبعد خلقه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾: في جملة الناس ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾: المخضر الرطب

الندي، ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾: تقدحون، وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع عظمهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي الأناسي في الصغر ﴿بَلَىٰ﴾ أي هو قادر على ذلك، أجاب نفسه ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الكثير الخلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء[1].

المناسبات:

ذكر الله تعالى قبل هذا المثل آياته الباهرة، وحججه القاهرة في تقرير ربوبيته، ثم بين في هذا المثل الحجة الظاهرة في تقرير البعث والنشور، قال الرازي: «إنه تعالى لما ذكر دليلًا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]: ذكر دليلا من الأنفس، فقال: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة»[2].

الهدايات:

- يبين الله تعالى أن مثل هذا القياس إنما هو ذهول وغفلة عن أصل خلقه؛ لذلك يجيب الله عليه بثلاثة أجوبة شافية، وهي أمثلة محكمة وافية: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، **وهي كما يلي:**

المثل الأول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، هذا هو المثل الصحيح، والقياس المستقيم، فالذي أنشأ العظام وأوجدها، وخلقها:

---

(١) ينظر: تفسير الجلالين ص (٥٨٦).

(٢) التفسير الكبير: (٢٦/ ٣٠٧).

قادر على إحيائها، وإعادتها بعد أن بليت، فلا فرق بينهما، بل إيجادها من العدم أعظم من إعادة إحيائها، لذلك نجد أن هذا الدليل يحيط بالشبهة قبلها، وفي أثنائها، وبعدها، فقد قال قبلها: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، وقال في أثنائها: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، ثم قال بعدها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذه الإحاطة تدل على إبطال الشبهة من أصلها، واجتثاثها من جذرها؛ لذلك ذكرها الله تعالى في مواطن من كتابه، فقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]، وقال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]؛ وهذا لعظيم قدرته.

- ثم يبين واسع علمه، وإحاطته بخلقه، في ختم هذا المثل، فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فبكمال القدرة، مع كمال العلم يتحقق البعث.

المثل الثاني: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾: وهذا دليل على البعث، وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار اليابسة المحرقة، من الشجر الأخضر الرطب البارد ذي النضرة والثمرة، فتغير هذه الصفات والخصائص والأحوال، وإخراج الأشياء من أضدادها: كل ذلك دليل على قدرة الله تعالى على كل شيء، ومنه إعادة الحياة للعظام بعد فنائها.

المثل الثالث: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾: وهذا دليل واضح للعقول، وإن ضعفت، فالذي خلق السماوات وكواكبها ونجومها، مع سعتها وعظمتها، وخلق الأرض وبحارها وجبالها وأشجارها، مع تنوعها وكثرة خيراتها، كيف يعجز من قدر على ذلك عن أن يخلق أجسامهم، ثم يعيد أرواحهم إلى أعيانهم، وهذا قياس أولوي،

فخلق السماوات والأرض أعظم، فما دونه أولى منه، كما قال سبحانه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧]، وقد ذكر الله تعالى هذا المثل كما في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣].

- وختم الله سبحانه هذا المثل بقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾: فأجاب الله سبحانه على سؤاله؛ لأنه الجواب الذي لا يختلف فيه عامة العقلاء، فضلًا عن عباده المؤمنين الأتقياء، فإنه من ضروريات العقول، وحقائق الفطرة، وأصول الإيمان التي لا يصح إلا بها.

فتأمل هذه الأمثلة الثلاثة المتضمنة للطريقة القرآنية، في ذكر الحجج البرهانية، والأقيسة العقلية.

المثل الحادي والخمسون: فإذا نزل بساحتهم

سورة الصافات

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٦-١٧٧].

المعنى الإجمالي:

«مثل العذاب النازل بهم، بعد ما أنذروه، فأنكروه: بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أهبتهم، ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم، حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا، فسميت الغارة صباحا، وإن وقعت في وقت آخر.

وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الروعة التي تحس بها، ويروقك موردها على نفسك وطبعك، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل»[1].

المناسبات:

بدأت الآية بهذا الاستفهام، وهو تفريع على التأجيل المذكور في قوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]، فلما أنذرهم بعذاب يحل بهم، توقع أنهم سيقولون على سبيل الاستهزاء: أرنا العذاب الذي تخوفنا به، وعجله لنا، فذكر لهم حال العذاب، وما سيقع بهم، ثم عطف في الآية: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ..﴾ [الصافات:١٧٤]؛ ليبين

(١) الكشاف: (٤/ ٦٨).

أن الله تعالى سينتقم منهم، فعطف عليه أمره رسوله ﷺ بأن لا يهتم بعنادهم[١].

الهدايات:

- **فيها**: استخدام أسلوب الوعيد والتهديد، حيث لم ينفع معهم التبشير، والدعوة بالتي أحسن، والموعظة الحسنة، وكلها أساليب تستخدم بحسبها على مقتضى الحكمة.

- **فيها**: أن الكفار لا ينفعهم النصح والإنذار، كما لم ينتصح أولئك الذين صبحهم الجيش بكلام ناصح، ولا استعدوا للدفاع عن أنفسهم، حتى هزمهم وأفناهم.

- إضافة العذاب إلى الله تعالى بأسلوب الجمع، وهو يفيد التعظيم، قال البقاعي: (﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ [الصافات:١٧٦]: أي على ما علم له من العظمة بإضافته إلينا)[٢].

- **فيها**: تحقق هذا العذاب، وقد استخدم النبي ﷺ هذه العبارة، فقال: «**الله أكبر: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[٣]؛ لبيان تحقق ذلك.

- في قوله: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات:١٧٧]: إشارة إلى إقامة الحجة عليهم، حيث سبق إنذارهم، فأعذر الله إليهم، ثم ذكرهم بعد العذاب بأنكم أنذرتم به.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٣/ ١٩٨).

(٢) نظم الدرر: (١٦/ ٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، رقم (٣٧١)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر، رقم (١٣٦٥).

المثل الثاني والخمسون: فتاه مصغرا

سورة الزمر

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

المعنى الإجمالي:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: هو المطر.

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: فأدخله، ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: هي عيون، ومجاري كائنة فيها، أو مياه نابعات فيها، إذ الينبوع جاء للمنبع وللنابع فنصبها على الظرف أو الحال.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾: أصنافه من بُر، وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة، وحمرة وغيرهما.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: يتم جفافه؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منبته.

﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾: من يبسه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾: فتاتا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: لتذاكير بأنه لا بد من صانع حكيم، دبره وسواه، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها.

﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: إذ لا يتذكر به غيرهم[1].

---

(١) تفسير البيضاوي: (٥/ ٤٠).

المناسبات:

سُبق المثل بالكلام عن البعث، وما أعد الله تعالى في الآخرة من العذاب المهين، والنعيم المقيم، «ولما أخبر سبحانه بقدرته على البعث، دل عليها بما يتكرر مشاهدته من مثلها، وخص المصطفى ﷺ بالخطاب؛ حثًا على تأمل هذا الدليل؛ تنبيهًا على عظمته»(١).

لذلك ذكر بعد المثل أن المؤمن منشرح الصدر، مطمئن بالحق؛ لوضوحه، بخلاف من قسى قلبه، فأنكر الحجة، وتنكب المحجة.

الهدايات:

- أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها: وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها.

وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا؛ لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض(٢).

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك، وأنه وإن طال عمره: فلا بد له من الانتهاء، إلى أن يصير مصفر اللون، منحطم الأعضاء والأجزاء، ثم تكون عاقبته الموت.

- جعل هذه الآيات العيانية ذكرى لأولي الألباب، ولم يقل لقوم يبصرون، مع أن هذه الظواهر يبصرها كل أحد، ولا تحتاج إلى عقل يتفكر؛ لأن المقصود ليس مجرد الإبصار، وإنما المقصود ما وراء ذلك من الاستبصار والتعقل

(١) نظم الدرر: (١٦/ ٤٨٣).
(٢) تفسير الرازي: (٢٦/ ٤٤٠).

والتأمل، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ [النحل:٦٤-٦٥]؛ وذلك لأن المقصود أن تؤدي هذه الآيات العيانية إلى سماع الآيات القرآنية، والاهتداء بها.

المثل الثالث والخمسون: فيه شركاء متشاكسون

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا لقبح الشرك، عقلًا وطبعًا برجل مملوك لشركاء كثيرين، وليسوا متفقين، بل هم متشاكسون متنازعون فيما بينهم، لكل منهم طلبه وأمره، ولكل رأيه ونظره، فهذا العبد في اضطراب بين الآراء، وتخبط بين هذه الأهواء.

فهذا المثل العظيم إنما هو مثل للمشرك والموحد، فالمشرك يتعبد لهذا وذاك، ويطيع هذا وذاك، ويدعو هذا وذاك، لذلك قال سبحانه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: وهو استفهام بمعنى نفي استوائهما، واستبعاد اتفاق حالهما.

ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي على إقامة الحجة عليهم، وإظهار قبح شركهم بفطرتهم، لو كانوا يعلمون.

المناسبات:

ولما أقام سبحانه الدليل المنير على التفاوت العظيم، بين من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا، يدعو الله مخلصا له الدين، وبين من يدعو لله أندادًا، وختم بضرب الأمثال، وكان الأمثال أبين فيما يراد من الأحوال، قال منبها على عظمتها،

بلفت القول عن مظهر العظمة، إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ أي الملك الأعظم المتفرد بصفات الكمال ﴿مَثَلًا﴾ لهذين الرجلين مع أنه لا يشك ذو عقل أن المشرك لا يداني المخلص، فضلا عن أن يقول: إن المشرك أعظم كما يقوله المشركون(١).

«ولما تمم الله هذه البيانات قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة؛ بسبب استيلاء الحرص، والحسد عليهم في الدنيا، فلا تبال يا محمد بهذا؛ فإنك ستموت، وهم أيضا سيموتون، ثم تحشرون يوم القيامة، وتختصمون عند الله تعالى، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه، وحينئذ يتميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق»(٢).

الهدايات:

- ضرب المثل دليل على أهميته، وانطباقه على جميع المشركين، من عبدة الأصنام وغيرهم، ممن تشتت قبله، واضطرب أمره.

- المشرك لا قرار له، ولا استقرار، ولا راحة له، ولا اطمئنان، بل هو في اضطراب وقلق، وتفرق للقلب، مع النصب والتعب.

- بينما يعبد الموحد ربًّا واحدًا، لا شريك له، ويدعوه وحده، ويطيعه وحده، ويتقرب إليه دون غيره، وهو يعلم حقه عليه، فينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويسقر أمره.

---

(١) نظم الدرر: (١٦/ ٤٩٧).

(٢) تفسير الرازي: (٢٦/ ٤٥١).

- وذكر الرجل هنا؛ لكونه أقوى من الأنثى، وأعرف بمواقع النفع والضر، وكان كونه بالغًا أعظم لقوته، وأشد لشكيمته، فيكون أنفى للعار عن نفسه، وأدفع للظلم عن جانبه، وأذب عن حماه[1].

- ﴿شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾: فيها دلالة على أن الأصل في الشركة حصول الخلاف؛ لاختلاف طبائع الخلق، وبخاصة في الملك والسيادة، كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

- ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾: فيه إنكار مطلق؛ فكما أن هذين العبدين لا يستويان عقلًا، ولا واقعًا، في الطمأنينة والسكينة، وأداء الحقوق على وجهها، والقيام على الخدمة بحقها، فكذلك لا يستوي المشرك والموحد عقلًا ولا عرفًا ولا شرعًا.

- ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي حقيقة العلم، التي تحملهم على تحقيق التوحيد لرب العبيد، وتجنبهم جميع صور الشرك والتنديد.

(١) ينظر: نظم الدرر: (١٦/ ٤٩٧).

المثل الرابع والخمسون: كزرع أخرج شطأه

سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

المعنى الإجمالي:

وصف الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ بأنه رسوله حقًا، ثم أثنى على أصحابه رضي الله عنهم بأبلغ الثناء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: فهم مع النبي ﷺ، ويؤمنون به، ويتبعونه، ويحبونه، وينصرونه.

وهم أشداء على الكفار؛ غضبًا لله تعالى، وبغضًا لهم؛ لكفرهم به جل في علاه، طاعة لأمره، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

ثم هم رحماء بينهم، متحابون متعاطفون، كما قال النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٥٦٦٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

وهذان الوصفان، وهما الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين من أصول الإيمان، كما قال ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله**»(١)؛ لذلك جمع الله بينهما، كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

فهذا في وصف الصحابة، ومعاملتهم مع الخلق، وأما معاملتهم مع الخالق: فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا...﴾ [الفتح:٢٩]، فوصفهم بكثرة الصلاة، والعبادة لله، ثم الإخلاص فيها، وابتغاء فضل الله منها.

فلما عمر الله قلوبهم بالإيمان والإخلاص: انعكس نورها وبهاؤها على وجوههم، لذلك قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]، وهو السمت الحسن والنضرة في الوجه كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢).

هذا مثلهم في التوراة، أي هذا وصفهم، وهو أحد معاني المثل كما سبق.

وأما في الإنجيل: فقد ضرب الله لهم مثلًا، وهو محل الشاهد من الآية في قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩]: فشبههم الله تعالى بالزرع الذي ينبت، ثم يخرج بجنبه الشطأ، وهو فراخه وفروعه حوله، فتؤازره، وتشده فيتقوى الزرع، ويطول، ويثبت في نفع الخلق، واحتياج الناس لهم، وقوة إيمانهم، وصلاح أعمالهم، كالعروق الضاربة في الأرض.

---

(١) رواه أحمد في المسند: (٤/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان رقم (١١٠)، والطيالسي في المسند رقم (٧٤٧).

(٢) رواه ابن جرير: (١٤٤٤٥)، بإسناد حسن، كما في صحيح التفسير: (٤/ ٣٦٣).

ثم هنا توجيهان للفروع التي تنبت متأخرة حول الزرع الأصلي:

- فإما أن يقال: إنهما جميعا مثل الصحابة حول النبي ﷺ؛ حيث آمنوا بعده، وآزروه ونصروه.

- وإما أن يقال: بأن الصغار منهم، والمتأخر إسلامه فيهم، قد لحق بالكبير السابق، فعاونه وآزره في إقامة الدين، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، وكلا المعنيين دال على المراد.

ثم هؤلاء الصحابة بهذه الصفات العظيمة، والمناقب الكريمة جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ شوكة في حلوق الكافرين، يغيظهم بهم، ويسلطهم عليهم؛ لذلك قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]؛ فكل من أبغض الصحابة أو طعن عليهم، أو أغاظه شيء من إيمانهم: فله نصيب من هذا الوصف.

ثم ختم الله تعالى هذه الصفات، بأعظم البشارات، وغاية الأمنيات، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

«منهم» هنا بيانية، وليست تبعيضية، لكون تلك الأوصاف هي من الإيمان والعمل الصالح، الذي يستحقون به المغفرة، والأجر العظيم؛ فضلا من الرب الرحيم.

المناسبات:

بدأت السورة بالتبشير بالفتح، والثناء على النبي ﷺ، وأصحابه، وبيان شرفهم، ورضا الله تعالى عنهم، ثم جاءت خاتمتها لبيان سبب هذا الفضل والشرف، وهو في النبي ﷺ؛ لأنه رسول من الله جل في علاه، وفي أصحابه؛ لما اتصفوا به من صفات التعبد لله تعالى، والتواضع للمؤمنين، والقوة على الكافرين، وضرب لهم في ذلك هذا المثل البديع.

الهدايات:

- في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح:٢٩]، بعد قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨] أي: «في أنه رسول الله، وفيه معنى لطيف، وهو أن قول الله مع أنه كاف في كل شيء، لكنه في الرسالة أظهر كفاية؛ لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل، فإذا قال ملك: هذا رسولي، لو أنكر كل من في الدنيا أنه رسول: فلا يفيد إنكارهم، فقال تعالى: أي خلل في رسالته بإنكارهم، مع تصديقي إياه بأنه رسولي»[(١)].

- في الآية هداية عظيمة ظهرت بالتأمل حول سبب اختيار وصف العبادة في التوراة، ووصف القوة في الإنجيل، والظاهر في ذلك أن أصحاب التوراة أهل قسوة فذكر لهم وصف العبادة عند الصحابة.

وأما أصحاب الإنجيل فهم أصحاب رأفة ورهبانية وضعف، فذكر لهم وصف القوة عند الصحابة، وفي ذلك بيان لوسطية هذه الأمة واعتدالها، والله أعلم.

- **قال الجزائري: «من هداية الآية الكريمة:**

١- تقرير نبوة رسول الله وتأكيد رسالته.

٢- بيان ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الشدة والغلظة على الكفار، والعطف والرحمة على أهل الإيمان، وهذا مما يجب الأتساء بهم فيه، والاقتداء.

٣- بيان فضل الصلاة ذات الركوع، والسجود، والطمأنينة، والخشوع.

٤- صفة أصحاب رسول الله في كل من التوراة والإنجيل، ترفع من درجتهم، وتعلي من شأنهم.

٥- بيان أن أصحاب رسول الله ﷺ بدأوا قليلين، ثم اخذوا يكثرون، حتى كثروا كثرة أغاظت الكفار.

---

(١) تفسير الرازي: (٢٨/ ٨٨).

٦- بغض أصحاب رسول الله ﷺ يتنافى مع الإيمان منافاة كاملة، لا سيما خيارهم وكبارهم، كالخلفاء الراشدين الأربعة، والمبشرين بالجنة العشرة، وأصحاب بيعة الرضوان، وأهل بدر قبلهم؛ ولذا روي عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أن من يغيظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر»[١].

- وفي ختم الآية: «لما كان الإنسان وإن اجتهد مقصرًا عن بلوغ ما يحق له من العبادة، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿مَّغْفِرَةً﴾ [الفتح:٢٩]، أي لما يقع منهم من الهفوات أو الذنوب والسيئات ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩]، بعد ذلك الستر»[٢].

- قال البقاعي: «وقد جمعت هذه الآية الخاتمة لهذه السورة جميع حروف المعجم؛ بشارة تلويحية، مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم، وعلو نصرهم»[٣].

وقال: «تلويحا إلى أن أمرهم لا بد من تمامه، واشتداد سلكه وانبرامه، واتساق شأنه وانتظامه، وخفوق ألويته وأعلامه، وافتتحها بميم «محمد» وهي مضمومة، وختمها بميم «عظيما» المنصوبة؛ إشارة بما للميم من الختام بمخرجها، إلى أن تمام الأمر قد دنا جدا إبانه، وحضر زمانه، وبما في أولها من الضم إلى رفعة دائمة في حمد كثير، وبما في آخرها من النصب إلى تمام الفتح وانتشاره، وقربه واشتهاره، على وجه عظيم، وشرف في علو جسيم»[٤].

(١) أيسر التفاسير: (٥/ ١١٩).
(٢) نظم الدرر: (١٨/ ٣٤٦).
(٣) المرجع السابق: (١٨/ ٣٤٦).
(٤) المرجع السابق: (١٨/ ٣٤٧).

المثل الخامس والخمسون: يأكل لحم أخيه ميتا

سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

المعنى الإجمالي:

هذه جملة من الآداب، التي يؤدب الله بها عباده المؤمنين لإقامة صرح الأخوة الإيمانية، في ظل العبودية لله تعالى، فينهى عن كثير من الظن؛ لأن بعضه قد يكون إثمًا، ولا يمكن تجنب هذا البعض إلا بتجنب عامته.

ثم نهى عن التجسس، وتتبع العورات، وانتهاك الحرمات.

ثم نهى عن الغيبة، وهي كما قال ﷺ: «**ذكرك أخاك بما يكره**»(١). وتأمل في هذا الترتيب العجيب للآية: فبدأ الله تعالى بالأمر باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم، ثم اجتناب التحقق من صحة الظن؛ ليصير علمًا، وهو التجسس، ثم إذا علمه ورآه نهى عن اغتيابه وهتك ستره.

ثم يضرب الله تعالى مثلا على شناعة الغيبة، وبشاعتها، فيقول: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: فكما أنه يشنع في الطبائع، وتكره النفس غاية الكراهة أكل لحم أخيك، وهو ميت: فكذلك لا بد أن تكره اغتيابه،

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

والكلام عليه، والطعن فيه، وهو غائب عنك، وهذا كما قال ﷺ: «**لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»(١).

بل قد أظهر الله تعالى هذا المثل لرسوله ﷺ لما اغتاب صحابيان خادمًا لهما، فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين أنيابكما**»(٢).

المناسبات:

جاء هذا المثل في وسط وصايا ربانية للمحافظة على الأخوة الإيمانية، فلما حرم الاقتتال بين المؤمنين، وأمر بالإصلاح بينهم، قطع كل طريق يؤدي إلى النزاع:

- فنهى عن السخرية، ثم نهى عن التنابز بالألقاب، وهو أعم من السخرية.
- وبعد ذلك ربما سمع المؤمن لفظًا يحتمل السخرية أو الاستهزاء، فأمر بحسن الظن في مقابلة ذلك.
- ثم نهى عن تتبع ما لا يظهر من الأمور بالتجسس عليها.
- فإن رآى شيئًا نهى عن التحدث به، واغتياب صاحبه، وشبهه بهذه الصورة المقبحة طبعًا وعقلًا.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٢٤)، وهو صحيح لغيره، كما في صحيح الترغيب والترهيب للألباني: (٢٨٣٩).

(٢) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق: (١٨٦)، والضياء المقدسي في المختارة: (٢/ ٣٣/ ٢)، كما في السلسلة الصحيحة للألباني برقم: (٢٦٠٨).

- ثم أعقبه ببيان فضل التعارف والتحابب، وبين أن التفضيل عند الله تعالى بمقدار التقوى، التي تحمل على ترك تلك الأفعال، والأقوال المنهي عنها.

الهدايات:

يتضمن هذا المثل القرآني غاية البلاغة في التنفير من هذا الفعل مما يحقق الهداية الأخلاقية، وذلك من وجوه[1]:

- **منها**: أن هذا المشبه به، وهو أكل لحم الأخ ميتا لا يمكن أن يختلف اثنان في استخباثه واستعظامه، فكان هذا أبلغ في الزجر والتشنيع؛ لذلك بدأه بالاستفهام المسلم بجوابه.

- **ومنها**: أن الغيبة مما تسهل على اللسان، ولا تثقل على النفس أن تسلس لها القياد، بل قد تحبها، وتأنس بها، فكان لا بد من تشبيهها بما يصعب على النفس، ويثقل طبيعة، ويكره فطرة.

- **ومنها**: أن أغلى ما في الإنسان عرضه، فمن نقص من عرضه: فكأنما نهش من لحمه، فالعرض هو الإنسان المعنوي، كما أن اللحم هو الإنسان الحسي.

- **ومنها**: أن تقييد اللحم بلحم الأخ؛ لزيادة التنفير؛ فإنه أفحش من غيره، والمراد هنا الأخوة الإيمانية، فهي الوشيجة الربانية، ففيها تلطف مع ملامة، فهو أخ لك، مهما بعد عنك.

- **ومنها**: أن الغائب لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الغيبة، والتهمة، والوقيعة، بل لا يشعر بها، وهذا مثل الميت، فهو لا يستطيع أن يدفع الاعتداء عن نفسه، وأذى الحي له، ولا يشعر به.

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين: (١/ ١٣١)، بتصرف، مع زيادات تدبرية.

- **ومنها**: أن الغيبة حركة بالأفواه، وذكر للمثالب، وتمزيق للأعراض، فهي في طريقتها كأكل اللحم، وتمزيقه، وصعوبة مضغه، وتقطيعه.

- **ومنها**: أن اللحم يغطي العظام، فمن يأكله، وينهشه يكشف عن العظام، وكذلك من يغتاب إنما هو كاشف لعيوب غيره، وهاتك لستره.

هذا ما فتح الله ووفق إليه من وجوه الدلالات، ولو أعمل القلب بمزيد من التدبر والتفكر: لخرج بأكثر من ذلك.

ثم ختم الله تعالى الآية بالأمر بالتقوى؛ لأنها إن عمرت القلوب خضعت لها الجوارح بالطاعة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه رحمة بعباده وتعطفًا عليهم؛ فإن آفات اللسان لا ينفك عنها الإنسان، ولكن العفو والمغفرة من الغفور الرحمن.

المثل السادس والخمسون: جراد منتشر

سورة القمر

قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧].

المعنى الإجمالي:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت رقابهم، وذلت أنوفهم، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: وهي القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: مبثوث في الأرض، متكاثر جدا من كل جهة(١).

المناسبات:

لما بين الله تعالى دعاء الداعي بما هال أمره، بين حال المدعوين زيادة في الهول فقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ينظرون نظرة الخاضع الذليل السافل المنزلة المستوحش الذي هو بشر حال، وبين كيفية خروجهم واجتماعهم للحشر، فشبههم بالجراد المنتشر، ولما كان الانتشار قد يكون على وجه المهل والوقار، قال الآية بعدها مبينًا أن الأمر على خلاف ذلك؛ زيادة في هول ذلك اليوم، وتقريرًا لما تقدم من وصفه: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر:٨] أي مسرعين خائفين

(١) ينظر: تفسير السعدي (٨٢٤).

مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه، مادين أعناقهم نحوه مصوبي رؤوسهم لا يلتفتون إلى سواه كما يفعل من ينظر في ذلك وخضوع وصمت واستكانة، فتأمل في هذا التناسب والتناسق في تصوير ذلك الموقف(١).

الهدايات:

- قال الطبري: (وإنما وصف جلّ ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم؛ لأن أثر ذلة كل ذليل، وعزّة كل عزيز، تتبين في ناظريه دون سائر جسده، فلذلك خصّ الأبصار بوصفها بالخشوع)(٢)، وذلك كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

- قال البغوي: (لفظ «الجراد»، نظيرها: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة:٤] وأراد أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها، كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض)(٣).

- وفي هذا دلالة على حيرتهم واضطرابهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

- في هذا التشبيه بيان لهول الموقف، وخروجهم كرها، وسوقهم إلى المحشر دون أدنى اختيار، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

---

(١) ينظر: نظم الدرر: (١٩/ ١٠١).
(٢) تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٧٣).
(٣) تفسير البغوي: (٧/ ٤٢٨).

- وفيه: بيان لكثرة الخلق، واجتماعهم من كل اتجاه، وكلهم مطلع عليهم ربهم، قد علم أحوالهم، وأحصى أعمالهم، وسيوفيهم نصيبهم بالقسط، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩].

المثل السابع والخمسون: أعجب الكفار نباته

سورة الحديد

قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

المعنى الإجمالي:

سبق الكلام عن مثل الدنيا في موضعين، وهذا الموضع الثالث، وكلها متعانقة في الدلالة على حقيقة الدنيا، وعدم الاغترار بها، أو إيثارها على الآخرة؛ فإنها قليلة مهما كثرت، صغيرة مهما كبرت، قصيرة مهما طالت: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [التوبة:٣٨].

فهي كغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم، ونظرهم إلى الدنيا: جاءها من أمر الله تعالى ما أتلفها، فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق.

كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود

منها سوى الكفن، فتبًا لمن أضحت هي غاية أمنيته، ولها عمله وسعيه[١].

المناسبات:

قال ابن عاشور: «أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال؛ لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا.

فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة؛ تحقيرًا لحاصلها، وتزهيدا فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد»[٢].

ولذلك أعقب المثل بالأمر بالمسابقة إلى الطاعات، والمسارعة في الخيرات، ومنها الصدقات.

الهدايات:

- فيها: «أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور، وهي: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر.

وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي: العذاب الشديد، والمغفرة، ورضوان الله»[٣].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي: (٨٤١).

(٢) الكشاف: (٤/ ٤٧٨).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٤٠٠).

- وفي وصف الدنيا بالحياة: دلالة على أنها ليست مذمومة مطلقا لمن يستثمرها في وجهها؛ ولذلك امتن الله تعالى على الخلق بإحيائهم فيها، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

- قوله: (أعجب الكفار): «ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا فإن المؤمن إذا رأى معجبا انتقل فكره إلى قدرة موجده عَزَّوَجَلَّ فأعجب بها، ولذا قال أبو نواس في النرجس:

عيون من لجين شاخصات على أطرافها ذهب سبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به، فيستغرق إعجابا ثُمَّ يَهِيجُ يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له»(١).

- «فضرب مثل الحياة الدنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء، ومن جدة وتبذل وبلى، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها، ثم إدبارها بعد ذلك، بأطوار الزرع، وكلها أعراض زائلة، وآخرها فناء»(٢).

- قوله: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران:٤]: «وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك: إشارة إلى غلبتها أيضا، ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الأولى»(٣).

- قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾: التدرج في ذلك دليل على عظمة رضوان

(١) روح المعاني للآلوسي: (١٤/ ١٨٥).
(٢) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٤٠٥).
(٣) روح المعاني للآلوسي: (١٤/ ١٨٥).

الله تعالى، وأنه أعلى المطالب، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

-قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: **وذلك من وجوه:**

- **أولها**: أنه لو حصل للإنسان جميع مراداته لكان غمه وهمه أزيد من سروره؛ لأجل قصر وقته، وقلة الوثوق به، وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا.

- **وثانيها**: أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر كان حصره في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد؛ فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده سكنت نفسه وليس كذلك، بل يزداد طلبه، وحرصه ورغبته.

- **وثالثها**: أن الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا يبقى محروما عن الآخرة، بقدر غفلته عنها، والتي هي أعظم السعادات والخيرات.

ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة: علمت أن الدنيا متاع الغرور[1].

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ٤٥٣).

المثل الثامن والخمسون: كمثل الشيطان

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

المعنى الإجمالي:

أي مثل المنافقين الذين غروا بني النضير بقولهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ثم خذلوهم، وما وفوا بعهدهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾، ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد إما عموم دعوة الشيطان إلى الكفر، وإما إغواء الشيطان قريشًا يوم بدر بقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٨][(١)].

المناسبات:

«لما شبه سبحانه أمرهم في طاعتهم لابن أبي، ومن معه، وهم البعداء المحترقون؛ بسبب إبعاد المؤمنين لهم بإبعاد الله، واحتراق أكبادهم لذلك مع ما أعد لهم في الآخرة، بأمر بني قينقاع، شبه قصة الكل بقصة الشيطان، ومن أطاعه من الإنس والجن، فقال مبينا لمعنى ما حط عليه آخر الكلام: ﴿كَمَثَلِ﴾ أي مثل الكل الواعدين بالنصر، والمغترين بوعدهم مع علمهم بأن الله كتب في الذكر ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجالة: ٢١] في إخلافهم الوعد، وإسلامهم

(١) تفسير الرازي: (٢٩/ ٥١١).

إياهم عند ما حق الأمر يشبه مثل ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾»[١].

الهدايات:

- في هذا المثل تشبيه المنافق بالشيطان، وفيه وجه دقيق وهو أن المنافق لا تظهر وساوسه ولا تسمع، وكذلك المنافق لا يظهر إغواءه، وإنما يخفيه كما يخفي كفره.

- وكذلك فإن الشيطان يزين الشر للناس، ويلبسه بلبوس الحق، كالمنافق الذي يزخرف القول، ويحسن الفعل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون:٤].

- قال الآلوسي: «وفي الآية عليه مع ما تقدم عن مجاهد[٢] لطيفة: وذلك أنه لما شبه أولا حال إخوان المنافقين من أهل الكتاب بحال أهل بدر: شبه هنا حال المنافقين بحال الشيطان، في قصة أهل بدر»[٣].

- «ولما كان الإنسان بما يساعد تزيين الشيطان عليه من شهواته وحُظوظه وأخلاقه يطيع أمره غالبا قال: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ أي أوجد الكفر على أي وجه كان، ودلت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه»[٤].

---

(١) نظم الدرر: (١٩/ ٤٥٥).

(٢) حيث نقل قوله: (مثل المذكورين من اليهود بني النضير، أو منهم ومن المنافقين كمثل أهل بدر).

(٣) روح المعاني: (١٤/ ٢٥٣)

(٤) نظم الدرر: (١٩/ ٤٥٥).

المثل التاسع والخمسون: خشوع الجبل

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

المعنى الإجمالي:

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا﴾: بعظمتنا التي أبانها هذا الإنزال.

﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أي الجامع لجميع العلوم، الفارق بين كل ملتبس، المبين لجميع الحكم.

﴿عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾ مع صلابته وفوته، ﴿خَٰشِعٗا﴾أي مطمئنًا مخبتًا على صلابته، متذللًا باكيًا، ﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾ أي متشققًا غاية التشقق، كما تصدع الطور لتجلينا له.

﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾: أي من الخوف العظيم ممن له الكمال كله؛ حذرًا من أن لا يكون مؤديًا ما افترض عليه من تعظيم القرآن عند سماعه.

فما لابن لآدم -وقد آتاه الله من العقل ما لم يؤت الجبل- يستخف بحقه، ويعرض عما فيه من العبر! كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾: أي التي لا يضاد فيها شيء، ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي لتكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى تفكره في تلك

الأمثال، فينفعه ذلك[١].

المناسبات:

لما بين الله تعالى لعباده ما سبق من الأحكام، وأمرهم ونهاهم، كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه، وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله؛ لكمال تأثيره في القلوب؛ فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي سهلة على النفوس، وميسرة على الأبدان، خالية من التكلف، لا تناقض فيها، ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها، ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكروا في آياته، ويتدبروها[٢].

وهناك مناسبة أخرى ذكرها الشوكاني بقوله: «لما فرغ سبحانه من ذكر أهل الجنة وأهل النار، وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء، ذكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالته، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب، وترق له الأفئدة»[٣].

ولذلك تحدث بعد هذا المثل عن صفات كماله، في أجمع آيات تنتظم أسماء جلاله، قال الرازي: «واعلم أنه لما وصف القرآن بالعِظم، ومعلوم أن عِظم الصفة تابع لعِظم الموصوف، أتبع ذلك بشرح عظمة الله»[٤].

---

(١) نظم الدرر: (١٩/ ٤٦٣)، بتصرف.
(٢) تفسير السعدي: (٨٥٣).
(٣) فتح القدير: (٥/ ٢٤٦).
(٤) مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٥١٢).

الهدايات:

- **في المثل**: بيان عظمة هذا القرآن، حتى خشعت له الجمادات، وخضعت لتأثيره الكائنات؛ وذلك لأنه كلام العظيم، ويشتمل على معالم التعظيم، للملك الكريم.

- **وفيه**: مدح للنبي ﷺ في ثباته لما لا تثبت له الجبال.

- **وفيه**: ذم للمعرضين؛ بكونهم أقسى من الجبال[١]، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

- **وفيه**: توبيخ للمسلم أيضا إذا لم يتعاهد قلبه، وخشوعه عند تلاوة القرآن، وتدبر قوارعه، والعمل بمقتضى أوامره وزواجره.

- **وفيه**: أن الإنسان أقل قوة من كثير من المخلوقات، لكنه أكثر ثباتا، فهو يقوم بحق القرآن إن أطاع، ويقدر على رده إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب[٢]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحواب:٧٢].

- **وفيه**: أن التفكر في القرآن يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن، والتدبر لمعانيه[٣].

---

(١) نظم الدرر: (١٩/ ٤٦٣).

(٢) تفسير القرطبي: (١٨/ ٤٥).

(٣) تفسير السعدي: (٨٥٣)، باختصار.

المثل الستون: بنيان مرصوص

سورة الصف

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

المعنى الإجمالي:

البنيان المرصوص: أي رص بعضه ببعض، وألزق بعضه ببعض، فهو عظيم الاتصال، شديد الاستحكام، كأنما رص بالرصاص، فلا فرجة فيه، ولا خلل، ولا تقدم، ولا تأخر(١).

قال ابن كثير: «فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين، إذا اصطفوا، مواجهين لأعداء الله، في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله، من كفر بالله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان»(٢).

المناسبات:

بعد أن حذر الله تعالى من التشبه بحال من استحق المقت واللعنة والغضب، ممن يقول ما لا يفعل: أتبع ذلك بالفعل الذي يحبه، والذي يصدّق القول، من الجهاد فيه، والثبات عليه.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ١٠٨)، ونظم الدرر: (٢٠/ ٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٠٧).

ولما كان التخلف عن أمر الله تعالى، والغفلة عن شرعه: يوجب الشقاء، وكان للتذكير بالمشاهدات، والأمور الواقعات: ما ليس لغيره في التأديب، ومرجع الترهيب: ذكر بعده ما كان من بني إسرائيل مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ترهيبًا من مثل حالهم؛ لئلا يوقع في نكالهم، حين تقاعسوا عما أمروا به(١).

الهدايات:

- هنا جملة من الهدايات بحسب توجيه المعنى، ذكر بعضها الرازي، بقوله: «قال أبو إسحاق:

- أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد، ويلزم مكانه، كثبوت البناء المرصوص.

- **وقال**: ويجوز أن يكون على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص.

- **وقيل**: ضرب هذا المثل للثبات: يعني إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص، الثابت المستقر.

- **وقيل**: فيه دلالة على فضل القتال راجلا؛ لأن العرب يصطفون على هذه الصفة»(٢).

لكن هذا الوجه الأخير فيه نظر، قال ابن عطية: «وهذا ضعيف، خفي على قائله مقصد الآية؛ وليس المراد نفي التصاف، وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله، وقصد بالذكر أشد الأحوال، وهي الحالة التي تحوج إلى

(١) نظم الدرر: (٢٠/ ٩).
(٢) مفاتيح الغيب: (٢٩/ ٥٢٧).

القتال صَفّا متراصا»[١].

- وقال قتادة: «ألم ترَ إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، كذلك تبارك وتعالى لا يختلف أمره، وإن الله وصف المؤمنين في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله؛ فإنه عصمة لمن أخذ به»[٢].

ويشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتراص في الصلاة، إلى قوله ﷺ: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**».

فقالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟

قال: «يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»[٣].

- **وفيها**: أن الأمة بناء واحد، لا تقوم شؤونهم، ولا يرتفع قدرهم، ولا يقوى أمرهم: إلا بوحدتهم وتكاملهم، كالبنيان الذي لا يمكن أن يقوم إلا برص لبناته، وتكامل أجزائه، كما قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه**»[٤].

(١) المحرر الوجيز: (٥/ ٣٠٢).

(٢) رواه الطبري: (٢٣/ ٣٥٧)، بإسناد حسن، كما في التفسير الصحيح: (٤/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، والنهي عن الإشارة باليد، ورفعها عند السلام، وإتمام الصفوف الأول والتراص فيها والأمر بالاجتماع، رقم (٤٣٠).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم (٦٠٢٦).

المثل الحادي والستون: كمثل الحمار يحمل أسفارا

قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

المعنى الإجمالي:

في هذه الآية يضرب الله تعالى مثلا لأولئك الذين أنزل عليهم الكتاب وحملوه، بل ربما قرأوا ما فيه، وحفظوه، لكنهم لم يتدبروا معانيه، ولم يفهموا مقاصده وخوافيه، ولم يعملوا بما فيه، فلا يتحاكمون إليه، ولا ينتهون عن نواهيه، فيشبه كل من كان هذا حاله بالحمار الذي يحمل الأسفار وهي الكتب على ظهره، وهو لا يدري بما فيها، وإن كانت الآية نازلة في اليهود خاصة، ولكن العبرة بعموم اللفظ.

بئس مثل هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا، وصدق رسالته.

والله لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما داموا ظالمين؛ بجحدهم ما علموه من الحق.

المناسبات:

قال البقاعي: «اعلم أنه تعالى لما أثبت التوحيد والنبوة، وبين في النبوة أنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعث إلى الأميين، واليهود لما أوردوا تلك الشبهة، وهي أنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث إليهم بمفهوم الآية أتبعه الله تعالى بضرب المثل للذين أعرضوا عن العمل بالتوراة، والإيمان بالنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمقصود منه أنهم لما لم يعملوا بما في التوراة شبهوا بالحمار؛ لأنهم لو عملوا بمقتضاها لانتفعوا بها، ولم يوردوا تلك الشبهة؛ وذلك لأن فيها نعت الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، والبشارة بمقدمه، والدخول في دينه»[1].

ولذلك تابع في الآية بعدها إبطال بقية مزاعمهم، من أنهم أولياء الله وأحباؤه، فتحداهم بتمني الموت إن كانوا صادقين.

الهدايات:

- وجه الشبه بينهم وبين الحمار ظاهر، فالحمار حظه من الكتب مشقة الحمل على الظهر، كما أن حظ هؤلاء ثقل الأمانة، وعظم المسؤولية بتوريثهم للكتاب، وإنزاله عليهم، كما قال مبينا ثقلها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

- أن هذا الذي يحملونه فيه هدايتهم، وراحتهم، وطمأنينتهم، لكنهم لا ينتفعون به، مع حاجتهم إليه، فهم يحملونه، وغيرهم ينتفعون به كالدواب التي تحمل الماء، ولا تشرب منه، كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

- أن هؤلاء بطاعتهم لأحبارهم ورهبانهم، وعدم تمييزهم للحق كمثل ذلك الحمار الذي ينقاد لسيده، دون معرفته لمآل أمره، وعاقبة سيره، كما

(١) نظم الدرر: (٣٠/ ٥٣٩).

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

- قوله: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾: أي لم يعملوا بها، فكأنهم لم يحملوها. فحقيقة الحمل: العمل؛ ولذلك فحقيقة أخذ القرآن أيضا: العمل به، قال ابن القيم: «فقاس من حمله سبحانه كتابه؛ ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له، وعمل بموجبه: كحمار على ظهره زاملة أسفار، لا يدري ما فيها، وحظه منها: حملها على ظهره ليس إلا.

فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود: فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته»[1].

(١) إعلام الموقعين: (٢/ ٢٨٨).

المثل الثاني والستون: كأنهم خشب مسندة

سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

المعنى الإجمالي:

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة، والهدى الصالح شيء، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ أي أسندت إلى جدار ونحوه، لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم، وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم، يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز، أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء[1].

المناسبات:

هذا المثل في متابعة تقرير خصال المنافقين، وما يتصفون به من سوء

(١) تفسير السعدي (ص٨٦٤).

الطوية، وإن ظهرت منهم بعض ما قد يغتر به من لا يعلم حالهم، ولم يسبر أقوالهم وأفعالهم، لذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، ثم أعقب المثل ببقية صفاتهم، التي تهتك أستارهم، وتخرج أضغانهم، في سورة خلدت شقاءهم.

الهدايات:

- «والخشب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم، والاستبصار بمنزلة الخشب»[١].

- خشب مسندة: أي في الخلو عن الفائدة؛ لأن الخشب إنما تكون مسندة إذا لم تكن في بناء، أو دعامة لشيء آخر.

- يحسب هؤلاء المنافقون، من خبثهم، وسوء ظنهم، وقلة يقينهم، كل صيحة عليهم؛ لأنهم على وجل أن ينزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم، وسبي ذراريهم، وأخذ أموالهم فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل فيهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعطبهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:٦٤].

- الشجاعة إنما تكون من اليقين من نور الفطرة، وصفاء القلب، وهم منغمسون في ظلمات صفات النفوس، محتجبون باللذات والشهوات، أهل الشك، والارتياب، فلذلك غلبهم الجبن والخور[٢].

(١) نظم الدرر: (٣٠/ ٥٤٧).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي: (٩/ ٢٣٥).

المثل الثالث والستون: لا نسب إلا التوحيد

سورة التحريم

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى في هذه الآيات ثلاثة أمثال: مثلا للكافرين، ومثلين للمؤمنين.

- فأما مثل الكافرين، فهما: امرأة نوح، وامرأة لوط، وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه أنه لا تنفع الكافر قرابة المؤمنين، ولا الصلة بالأنبياء والمرسلين، وإنما العلقة الوثيقة، واللحمة الوحيدة، والوشيجة العميقة هي الإيمان والتوحيد.

فلو كانت الصلة نافعة بغير الإيمان لنفعت امرأة نوح، وامرأة لوط، وهما تحت هذه النبيين الكريمين، والعبدين الصالحين.

ولكنهما خانتاهما بالكفر والشرك وليس المقصود خيانة الفاحشة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٧]، فمع هذه العلاقة والصلة إلا أن الله تعالى قال فيهما: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي حالهما كحال غيرهما من الكافرين.

المناسبات:

«لما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة

في الدينونة بالعدل والفضل، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين، وكان للكفار قرابات بالمسلمين، وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم، وللمسلمين قرابات بالكفار، وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم، قال؛ مجيبا لما يتخيل من ذلك، تأديبا لمن ينكر عليه ﷺ من النساء وغيرهن»[1]: فضرب هذا المثل.

ثم أعقبه بمثل لنقيض الحال؛ ليبين أن العبرة بالإيمان لا بالنسب والقرابات.

الهدايات:

- دلت الآية على أن أعظم الأمانة هي الإيمان والهداية، وأعظم الخيانة هي الكفر والغواية.

- **وفيها**: يقطع الله أطماع الكافرين ورجاءهم في منفعة الأقربين لهم وإن كانوا من المرسلين، فهذا ابن نوح يهلك مع الظالمين، ويقول فيه رب العالمين: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦].

وهذا أبو إبراهيم الخليل يقول الله فيه مثنيا على إبراهيم لبراءته منه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

بل يجعل الله القاعدة العامة يوم القيامة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة:٣]، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون:١٠١].

---

(١) نظم الدرر: (٢٠/ ٢٠٧).

فلا تعلق من دون الله بقرابة أو مصاهرة أو صحبة، وإنما النسب هو التوحيد والإيمان والتقوى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

- **وفيها**: أن الأمر كله لله، وأن الهداية والضلال من الله تعالى، وهي تسلية لكل من ابتلي بضلال أحد من قرابته، كما واسى الله تعالى نبيه في أعمامه وبعض قومه في آيات كثيرة.

- وفي التعبير بالمرأة دون الزوج: إشارة إلى أن الزوجية إنما تتم بحصول مقصودها من التكامل والتوافق والمودة والرحمة[1].

- **قال الجزائري في بيان هدايات الآية:**

- «**تقرير مبدأ**: لا تزر وازرة وزر أخرى؛ فالكافر لا ينتفع بالمؤمن يوم القيامة.

- والمؤمن لا يتضرر بالكافر، ولو كانت القرابة روحية نبوة، أو إنسانية أو أبوة أو بنوة؛ فإبراهيم لم يضره كفر آزر، ونوح لم يضره كفر كنعان ابنه، كما أن آزر وكنعان لم ينفعهما إيمان وصلاح الأب والابن.

- هذا وقرابة المؤمن الصالح تنفع المؤمن دون الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور:٢١] »[2].

(١) أيسر التفاسير: (٥/ ٣٩٣).

(٢) الإعجاز البياني للقرآن: (٢٣٠-٢٣١).

المثل الرابع والستون: أكمل النساء

سورة التحريم

قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١١-١٢].

المعنى الإجمالي:

- **هذا هو المثل الثاني**: وهو للمؤمنين، فبدأه بامرأة فرعون، فيبين الله تعالى أن صلة المؤمن بالكفر، وقرابته له لا تضره شيئا، ما دام متبرأ من كفره، فهذه امرأة رجل من أكفر الكافرين، وأظلم الظالمين، يصفها الله تعالى بالإيمان، ويضرب بها مثلا لمن بعدها، ويذكر دعاءها، على وجه المدح والثناء.

- **وأما المثل الثالث**: فهو للمؤمن أيضا، وهي مريم بنت عمران، التي لا صلة لها بزوج، بل هي امرأة عزبة وحيدة، وقع الناس في عرضها، وقذفوها في شرفها، ومع ذلك نفعها إيمانها، فتولى الله تبرئتها، وأثنى عليها، ونص على اسمها؛ رفعا لقدرها، وتخليدا لذكرها، فالإيمان هو أعظم الصلة بالله، وسبيل القربة إليه جل في علاه.

المناسبات:

هذا المثل يتسق وأسلوب القرآن في المقابلة بين الأضداد؛ لإظهار جلائل الأعمال، وعظائم الخصال:

فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الأشياء

فبعد ضرب المثل بالكافرات، وإن كنّ من قرابات المؤمنين، بل الأنبياء والمرسلين: ضرب هنا مثلا بالمؤمنات، إما بعد الرسالة والبعثة، كامرأة فرعون، وإما بالمولد والنشأة كمريم بنت عمران، التي أنبتها الله تعالى نباتا حسنا، وكفلها زكريا، وأجرى على يديها الكرامات.

الهدايات:

- هذه الأمثال الثلاثة لقرابة المؤمنين مع الكفر، وقرابة الكافرين مع الإيمان، والانفراد والوحدة مع الإيمان: لها ارتباط وثيق، مع ما سبق في سورة التحريم، من ذكر نساء النبي ﷺ:

- ففي المثل الأول تحذير لعائشة وحفصة رضي الله عنهما، من أن صلتهما بالنبي ﷺ ينبغي أن تقرن بالإيمان والتقوى، ولا يكون الاعتماد على مجرد هذه الصلة، كما قال ﷺ: «**لا أملك لكم من الله شيئا**»(١).

- وفي مثل امرأة فرعون تحريض على الطاعة، وأنه لا يضرهما كفر قريب إن هم آمنوا واتقوا، وفي مثل مريم تسلية لهما على الصبر، إن وقع بهم إيذاء أو كذب أو افتراء؛ فإنه لا يضرهم شيئا، والله يبرأ عباده المؤمنين، فالأمر من قبل ومن على قدر الإيمان برب العالمين.

- وفي مثل امرأة فرعون بيان لفضل من تسابق إلى الإيمان، وخير هذه الأمة التي ينتظمها المثل خديجة رضي الله عنها التي آوت الرسالة، وصدقت بها، وواستها.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، رقم: (٣٤٨).

- وفي مثل مريم بيان فضل من تنشأ على الإيمان، وخير هذه الأمة التي ينتظمها المثل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

- لذلك جمع النبي ﷺ بين هؤلاء النسوة الأربع، في أعظم فضائل النساء، فقال: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(١).

- قوله: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾: «طلبت القرب من رحمة الله، ثم بينت مكان القرب، بقولها: في الجنة، أو أرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى، التي هي أقرب إلى العرش»(٢).

- **وفي المثل**: فضل الدعاء، والحث على طلب خيري الدنيا والآخرة، والبدء بدعاء الآخرة، كما فعلت امرأة فرعون.

- **وفيه**: أن سبيل القنوت والإخبات والتقوى: مجاهدة النفس على ترك الشهوات، والتزام الواجبات.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: (٣٤١١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا برقم: (٢٤٣٠).
(٢) مفاتيح الغيب: (٣٠/ ٥٧٥).

المثل الخامس والستون: مكبّا على وجهه

سورة الملك

قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

المعنى الإجمالي:

(المكب): هو المتعثر، الذي يخر على وجهه؛ لوعورة طريقه، واختلاف سطحه، ارتفاعا وانخفاضا.

والذي يمشي سويا: هو القائم السالم من العثار؛ لاستواء طريقه، واستقامة سطحه(١).

«**والمعنى**: أن الكافر في اضطرابه، وتعسفه في عقيدته، وتشابه الأمر عليه، كالماضي في انخفاض وارتفاع، كالأعمى يتعثر كل ساعة فيخر لوجهه.

وأما المؤمن، فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان، وكونه قد وضح له الحق، كالماشي صحيح البصر، مستويا، لا ينحرف على طريق واضح الاستقامة، لا حزون فيها، فآلة نظره صحيحة، ومسلكه لا صعوبة فيه»(٢).

المناسبات:

لما قامت دلائل قدرته، وشمول علمه على سبيل العموم فالخصوص،

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (٩/ ٢٩٤).
(٢) البحر المحيط: (١٠/ ٢٢٨).

فكان ذلك مظنة أن يرجع الجاحد، ويخجل المعاند، ويعلم الجاهل، ويتنبه الغافل، فكان موضع أن يقال: هل رجعوا عن تكذيبهم؟! عطف عليه قوله؛ لافتا الكلام إلى الغيبة؛ إعراضا عنهم، تنبيها على سقوط منزلتهم، وسوء أفهامهم، وقوة غفلتهم: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ [الملك:٢١] أي تمادوا سفاهة، لا احتياطا وشجاعة، قال الرازي في اللوامع: واللجاج تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه ﴿فِي عُتُوّٖ﴾ [الملك:٢١] أي مظروفين؛ لعناد وتكبر عن الحق، وخروج إلى فاحش الفساد ﴿وَنُفُورٖ﴾ [الملك:٢١] أي شراد عن حسن النظر والاستماع.

واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم، مع أنه لا قوة لأحد منهم في جلب سار، ولا دفع ضار، والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب.

ولما كان هذا فعل من لا بصر له ولا بصيرة، سبب عنه قوله ممثلًا للموحد والمشرك بسالكين، ولدينيهما بمسلكين في هذا المثل العظيم[1]، ثم تابع في تقرير بقية الدلائل.

الهدايات:

- المثل ظاهر في بيان أي الرجلين أهدى:

من كان تائها في الضلال، غارقا في الكفر، قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا، والباطل حقا!

ومن كان عالما بالحق، مؤثرا له، عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله، وجميع أحواله؟

فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من

(١) نظم الدرر: (٢٠/ ٢٥٧)، بتصرف.

الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال[١].

- **وفيه**: ضرورة الاستقامة في كل شيء، فكما يحرص الإنسان على الاستقامة في مشيه، فكذلك لابد من الحرص على الاستقامة في عقله، وقلبه، وخلقه، وفعله، وقوله.

- **وفيه**: التأكيد على أهمية تبين الصراط، وتحري الحق، كما يتحرى الإنسان طريق سيره، وموضع خطوه، كما قال الشاعر:

أبصر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرة زلجا

(١) تفسير السعدي (ص٨٧٧).

المثل السادس والستون: فرَّت من قسورة

سورة المدثر

قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

المعنى الإجمالي:

يضرب الله تعالى مثلا لأولئك المعرضين، عن هديه المبين، الذي دَلّهم عليه، على لسان الأنبياء والمرسلين، فيشبههم في إعراضهم بالحمر -وهو جمع حمار- المستنفرة: أي النافرة الهاربة، من قسورة، ومعناها: الأسد أو الرماة، وكلاهما يدل على المراد.

المناسبات:

«لما أقروا على أنفسهم بما أوجب العذاب الدائم، فكانوا ممن فسد مزاجه، فتعذر علاجه، سبب عنه قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾ [المدثر:٤٨] أي في حال اتصافهم بهذه الصفات، وهي حالة لازمة لهم دائما ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨] أي لو شفعوا فيهم.

ولما كان هذا الإخبار بنعيم المنعم، وعذاب المعذب، موجبا للتذكر، سبب عنه الإنكار عليهم، فقال: ﴿فَمَا﴾ أي أيّ شيء يكون ﴿لَهُمْ﴾ حال كونهم ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ أي التذكر العظيم، خاصة بالقرآن، خصوصا، وبغيره عموما ﴿مُعْرِضِينَ﴾ وعلى الباطل وحده مقبلين، وذلك من أعجب العجب؛ لأن طبع الإنسان إذا

حذر من شيء حذره أشد الحذر، كما لو حذر المسافر من سبع في طريقه، فإنه يبذل جهده في الحيدة عنه، والحذر منه، وإن كان المخبر كاذبا، فكيف يعرضون عن هذا المحذور الأعظم، والمخبر أصدق الصادقين؟!

فإعراضهم هذا دليل على اختلال عقولهم، واختبال فهومهم»[1]، لذلك صورهم بهذا المثل.

ثم بعد تصوير ظاهرهم بهذا المثل، بين ما في بواطنهم بعد ذلك بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر:٥٢]، حسدا وكبرا وعلوا.

الهدايات:

- شبه هؤلاء في عدم علمهم، وقلة فهمهم، وذهاب عقلهم، بالحمر التي لا تعقل شيئا، فإذا سمعوا التذكرة والدعوة والموعظة نفروا من مجرد صوت الداعي، دون تدبر في الآيات، أو تفهم للبينات، فحالهم كتلك الحمر التي تفرُّ وتهرب، بمجرد سماع صوت الأسد أو الرامي.

- بل في هذا التشبيه أنهم اعتقدوا أن في هذه التذكرة هلاكا لهم، كاعتقاد تلك الحمر هلاكها بذلك الصوت؛ لذلك تسارع بالهرب.

- وفي قوله سبحانه: (مستنفرة) دلالة بليغة ليس على مجرد النفور فقط، بل على استنفار بعضهم لبعض، وتواطئهم على الفرار، وهذا حال الكفار والمنافقين مع بعضهم في تعاونهم على المنكر، وصدهم عن الدين كما قال سبحانه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

(١) نظم الدرر: (٢١/ ٧٧).

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٦٧].

وذكر حالهم في تواصيهم على التكذيب، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٣٢-٣٣].

وهذا بخلاف حال المؤمنين في تعاونهم على البر والتقوى، وتواصيهم على الهدى، كما قال سبحانه في وصفهم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

- هذا المشهد عنيف الحركة، مضحك إذا شبه به الآدميون حين يخافون!

فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر، لا لأنهم خائفون، بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم، وبمصيرهم، ويمهد لهم الفرصة؛ ليتقوا ذلك الموقف المزري المهين، وذلكم المصير العصيب الأليم.

- ففيه: أسلوب التهكم بهم، والسخرية منهم؛ «وتتركز السخرية في أن القرآن يشبه أعداء الله في نفورهم من الدعوة إلى الله بهذا القطيع، فما إن سمعوا الداعي إلى الله حتى فروا هاربين»[1].

(١) التصوير الساخر في القرآن (ص ١٤٢).

الخاتمة

وبهذا نكون قد أتينا إلى ختام هذه الأمثال، من كتاب ذي الجلال، على سبيل الإيجاز، المبرأ عن وصمة الألغاز، مع تقريب العبارات، وتوضيح الألفاظ والدلالات، واستنباط الهدايات، بعيدًا عن التكلف والتعسير، بل بما أمكن من التهذيب والتيسير.

سائلًا ربي سبحانه أن يتقبلها بقبول حسن.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

المقدمة..... ٦
تمهيد في معنى المثل وأنواعه وفوائده ومقاصده..... ٩
* أولا: معنى المثل..... ٩
* ثانيا: أنواع الأمثال..... ١١
* ثالثا: فوائد ضرب الأمثال وأهميتها..... ١٤
* رابعا: مقاصد الأمثال القرآنية..... ١٧
المثل الأول: المثل الناري ١٩
المثل الثاني: المثل المائي ٢٤
المثل الثالث: بعوضة فما فوقها ٢٩
المثل الرابع: قسوة القلوب..... ٣٤
المثل الخامس: ينعق بما لا يسمع..... ٣٧
المثل السادس: سنابل الصدقة ٤١
المثل السابع: صدقة المرائي..... ٤٥
المثل الثامن: صدقة المؤمن..... ٤٩
المثل التاسع: الأعمال الخاسرة ٥٤
المثل العاشر: الذي يتخبطه الشيطان..... ٥٩
المثل الحادي عشر: كمثل آدم..... ٦٤
المثل الثاني عشر: نفقة الكفار ٦٧
المثل الثالث عشر: كالذي استهوته الشياطين ٧٠

المثل الرابع عشر: يصّعّد في السماء..... ٧٤
المثل الخامس عشر: الميت والحي..... ٧٨
المثل السادس عشر: في سمّ الخياط..... ٨١
المثل السابع عشر: البلد الطيب..... ٨٤
المثل الثامن عشر: كمثل الكلب ٨٧
المثل التاسع عشر: كأنّما يساقون إلى الموت..... ٩١
المثل العشرون: والله متمّ نوره ٩٤
المثل الحادي والعشرون: أسس بنيانه..... ٩٨
المثل الثاني والعشرون: حقيقة الحياة الدنيا ١٠١
المثل الثالث والعشرون: المؤمن والكافر ١٠٥
المثل الرابع والعشرون: دعوة الحق ١٠٨
المثل الخامس والعشرون: أودية الإيمان ١١١
المثل السادس والعشرون: عظمة القرآن ١١٥
المثل السابع والعشرون: أعمال الكافرين ١١٩
المثل الثامن والعشرون: الكلمة الطيبة ١٢١
المثل التاسع والعشرون: الكلمة الخبيثة..... ١٢٤
المثل الثلاثون: فخرّ عليهم السقف ١٢٦
المثل الحادي والثلاثون: المملوك والسيد ١٢٩
المثل الثاني والثلاثون: العدل والكَلّ ١٣٢
المثل الثالث والثلاثون: كالتي نقضت غزلها ١٣٥
المثل الرابع والثلاثون: جناح الذل ١٣٨

المثل الخامس والثلاثون: اليد المغلولة..... ١٤٢
المثل السادس والثلاثون: صاحب الجنتين ١٤٥
المثل السابع والثلاثون: فأصبح هشيما..... ١٥١
المثل الثامن والثلاثون: فكأنما خر من السماء ١٥٤
المثل التاسع والثلاثون: ضعف الطالب والمطلوب ١٥٧
المثل الأربعون: مثل نوره ١٦١
المثل الحادي والأربعون: كسراب بقيعة ١٦٥
المثل الثاني والأربعون: في بحر لجّي ١٦٨
المثل الثالث والأربعون: إن هم إلا كالأنعام ١٧٢
المثل الرابع والأربعون: كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ١٧٥
المثل الخامس والأربعون: فأنتم فيه سواء..... ١٧٨
المثل السادس والأربعون: كلمات الله تعالى ١٨٢
المثل السابع والأربعون: كالذي يغشى عليه من الموت ١٨٦
المثل الثامن والأربعون: من في القبور..... ١٨٩
المثل التاسع والأربعون: في أعناقهم أغلال..... ١٩٢
المثل الخمسون: قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ١٩٥
المثل الحادي والخمسون: فإذا نزل بساحتهم ١٩٩
المثل الثاني والخمسون: فتراه مصفرا..... ٢٠١
المثل الثالث والخمسون: فيه شركاء متشاكسون ٢٠٤
المثل الرابع والخمسون: كزرع أخرج شطأه ٢٠٧
المثل الخامس والخمسون: يأكل لحم أخيه ميتا..... ٢١٢

المثل السادس والخمسون: جراد منتشر........................ ٢١٦
المثل السابع والخمسون: أعجب الكفار نباته ٢١٩
المثل الثامن والخمسون: كمثل الشيطان ٢٢٣
المثل التاسع والخمسون: خشوع الجبل ٢٢٥
المثل الستون: بنيان مرصوص ٢١٨
المثل الحادي والستون: كمثل الحمار يحمل أسفارا ٢٣١
المثل الثاني والستون: كأنهم خشب مسندة............ ٢٣٤
المثل الثالث والستون: لا نسب إلا التوحيد ٢٣٦
المثل الرابع والستون: أكمل النساء............ ٢٣٩
المثل الخامس والستون: مكبًّا على وجهه............ ٢٤٢
المثل السادس والستون: فرَّت من قسورة ٢٤٥
* الخاتمة ٢٤٨
* الفهرس ٢٤٩

الصف والإخراج: دار الإمام مسلم

daremslm@gmail.com
daremslm
00966532627111 - 00966590960002